الجزء الأول

الفضيحة

في تسعينيات القرن الميلادي الماضي خرج إلى شاشات السينما فيلم رعب أمريكي شهير أثار ضجة كبيرة وقتها كنت آنذاك صبيا في فترة المراهقة حيث التشوق الدائم للإثارة والرعب وكان هذا الفيلم مفتتحا لعدد من الأفلام التي صُنعت على منوالها مجموعة كبيرة من الأفلام تسير على نفس الطريقة بل لفرط نجاح الفيلم تم عمل أكثر من جزء منه بنفس الفكرة وأحيانا بنفس الأبطال .

عنوان معبر اختاره صناع الفيلم للجزء الأول وهو:

«أنا أعلم ما فعلتم في الصيف الماضي»

I know what you did last summer

في العام التالي كان الجزء الثاني وبنفس الأبطال وكان العنوان شبيها ولم يزد إلا كلمة واحدة كلمة لا زلت still

I still know what you did last summer

«لا زلت أعلم ما فعلتم في الصيف الماضي»

بعدها بعدة أعوام علمت أن جزءا ثالثا تم إنتاجه وكان العنوان شبيها أيضا بالعناوين السابقة

«سوف أظل دائما أعلم ما فعلتم بالصيف الماضي»

I›ll Always Know What You Did Last Summer

أتذكر جيدا فكرة ذلك الفيلم منذ تلك العقود وأتذكر أن أثرها في نفس ذلك الصبي المراهق الذي كنته تجاوز لحظات الرعب والتشويق لقد كانت فكرة الفيلم تدور حول فرضية هي ربما لا يطيق بشر التعايش معها...

أن يعلم بشر مثلك أسوأ ما فعلت!

أن يفتضح أمرك وأن ينكشف ما كنت تخفيه حتى عن أقرب الناس إليك وأن تُهدد بأن يعمم هذا الكشف والافتضاح.

كان ما فعله مجموعة المراهقين أبطال الفيلم في ذلك الصيف ما يسمى بجريمة صدم وهروب hit and run ولكن هذا الهروب لم يكن هروبا عاديا.

إن حادث سير قد أودى بحياة أحد المارة على الطريق السريع حين حطمت جسده سيارتهم المسرعة.

ربما كان الحادث غير مقصود وربما كان سفههم وسرعتهم الجنونية أو الخمر التي أذهبت بعقولهم وتركيزهم سببا في الحادث لكن المشكلة الأخطر كانت فيما فعلوه بعد ذلك لقد ألقوا بجثة الذي صدموه في البحر وهربوا ثم ظنوا أن الأمر قد انتهى بمجرد هروبهم ومرور الأيام والشهور ونسيانهم لكل ما حدث.

لكنه لم ينته..

لقد بدأ للتو

بدأ حينما طاردهم شخص مجهول يختم كل ما يفعله معهم بهذه الجملة عنوان الفيلم وأجزائه.

«أنا أعلم ما فعلتم في الصيف الماضي»

إذا فالجريمة لم تسقط والخطيئة لم تُنس هناك من لم يزل يتذكرها والأهم أنه يحاسبهم الآن عليها لن أطيل في ذكر الأحداث الكابوسية التي مرت بأبطال الفيلم والتي لا أتذكر أكثرها؛ لكنني أتذكر جيدا أنها أدت لتلك النتيجة التي خلصت إليها منذ سطور والتي لم تغادر ذهني بسهولة.

إنهم لم يعودوا يطيقون العيش مع تلك الفكرة .

هناك من يعلم أبشع أسرارهم.

وهو الآن يحاسبهم عليها.

الخطيئة لم تمر.

والمسؤولية لم تسقط.

هناك من يعلم.

ويحاسب ويعاقب.

وسيبوء كل منهم بما فعل.

سيبوء بذنبه!

المشكلة أن كثيرا منا حاله كأبطال ذلك الفيلم

لا يتعايش مع فكرة أن يعلم بشر أكثر أسراره خزيا ويطمئن حين تستر تلك الخبايا والأسرار ويجيد إخفاءها بينما لا يأبه للحقيقة التي ليس منها مهرب.

حقيقة أن هناك بالفعل من يعلم!

﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ [الأعلى: ٧].

﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[طه: ٧].

﴿ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[العنكبوت:٤٥].

﴿ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾[التوبة: ٧٨].

﴿ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾[المائدة: ٩٩].

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾[البقرة: ٢٣٥].

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾[المائدة: ٩٧].

﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾[الأنعام: ٣].

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾[غافر: ١٩].

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [الأعلى: ٧].

﴿ **يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾**[المجادلة: ٧].**

هذه الآيات المحكمات الواضحات القاطعات البينات ومثلها كثير مما تمتلىء به صفحات القرآن تظهر هذه الحقيقة جلية حاسمة أنه لا توجد أسرار كاملة الله يعلم ويشهد والمسلم يعلم أن الله يعلم وهو على علمه بكل ما فعلنا وما نفعل؛ قادر مقتدر سريع الحساب شديد العقاب.

- **فأين الله؟**

هكذا تساءلت المرأة حين راودها رجل عن نفسها قائلا وقد سترهما الليل وجافتهم أنظار الناس لا يرانا الآن أحد فكانت الإجابة: فأين الله وحين قال آخر: لا ترانا الحين إلا الكواكب

فقالت فأين مكوكبها؟

هذه قيمة تذكر علم الله وسمعه بصره وأن هذا العلم قد ينتقل إلى المخلوقين أيضا = فتكون الفضيحة رغم ذلك تفزعنا فقط تلك الأخيرة يفزعنا علم المخلوق ولا نطيق كشف عورات أفعالنا وانتهاك حرمة خطيئاتنا أمام فانين مثلنا نتستر منهم ونخشى الفضيحة أمام أعينهم ونستحيي من نظراتهم بينما لا نخجل منه رغم علمنا بعلمه دقائق أحوالنا وإحصائه لهفواتنا فضلا عن كبائر أخطائنا وخطيئاتنا!

فلماذا إذاً؟!

لماذا لم نستح منه ولماذا لم يأبه كثير منا بعلمه ونظره؟!

تأتيك الإجابة في حق البعض وذلك عبر آية من سورة فصلت

﴿ **وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ **[فصلت: ٢٢].**

إنه الظن الحقيقي الظن المترسخ في قلوبنا والذي يحول معلومة أن الله يعلم إلى حقيقة نابضة نحيا بها ونتحرك من خلال إدراكنا العملي لها هنا يظهر معنى تلك الكلمة التي علمنا إياها نبينا صلى الله عليه وسلم كلمة «**وأبـوء بذنبـي**».

أتحمله.

أستشعر ثقله على كاهلي.

أدرك عاقبته ومآلاته.

أعرف مسؤوليتي عنه.

وأبوء بكل ذلك.

يُخشى أن من لم يفعل ذلك منا يقع تحت طائلة ما هو أخطر من أي مما يضرب به المثل في أفلام الفزع الخيالية طائلة مآل سوء الظن بالله ذلك الذي حذر منه ربنا من وقعوا في مثل ما وقعنا فيه فلم يستحيوا من علم الله وسمعه وبصره فقيل فيهم:

﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

[فصلت: ٢٣].

بمقتضى ظاهر لفظ هذه الآية فإننا حين نقع فى معصية سر و نغلق الأبواب و نحرص على الانفراد بتلك المعصية و نستتر من كل عين و نحتجب عن كل بصر إلا بصر الله و سمعه فإن ذلك فيه دلالة ضمنية على سوء ظن بالله ونقص فى المعرفة بأسمائه و صفاته و قصور فى تعبده بمقتضاها.

فظن العبد أن ربه يعلم خائنة الأعين و ما تخفى الصدور و معرفته و يقينه باسمه العليم و السميع و البصير من المفترض أن يدفعه كل ذلك لمراقبة مولاه فى السر و العلن فلما لم يفعل دل ذلك على قصور فى هذا الظن و خلل فى تلك المعرفة أو أنه يعرف و لكنه لا يهتم و لا يستحيى من ذلك السمع و البصر و العلم و رغم أن الآية على قول جمهور المفسرين نزلت فى وصف حال الكافرين الذين سيرديهم ظنهم الذى ظنوه بربهم إلا أن

ذلك لا يمنع وجود صفة مشتركة بينهم وبين من كان الأصل عندهم = هتك محارم الله إذا خلوا بها

وأن من يفعل ذلك يحتاج إلى مراجعة ظنه بالله خوفا أن يقال له يوم القيامة

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ﴾

[فصلت: ٢٣].

يحتاج إلى مراجعة ظنه بسرعة ألا يكون ظنا أردى وأهلك!

أردى وأهلك حين لم تتحول معلومة أن الله يعلم إلى حقيقة نابضة نحيا بها ونتحرك من خلال إدراكنا العملي لها حقيقة تجعل دوما نصب أعيننا أمرا تتجاوز أعتى الأفلام الخيالية والروايات التي تحبس الأنفاس حقيقة أن الله يعلم ما فعلت ولم يزل يعلم وسيظل دائما وأبدا... يعلم

يعلم كل ما فعلته ليس فقط في الصيف الماضي ولا الذي قبله ولا الذي قبله.. ولكن في كل لحظة مرت بك.. وتمر... وستمر..

إذا فأين تلك الخلوات المزعومة؟!

أين السر والسريرة؟

أين الخبايا والخفايا؟

الإجابة الحقيقية ببساطة = ليست ثمة أشياء ولا لحظات ولا أماكن يمكن أن تصدق عليها تلك الأوصاف بإطلاق

باختصار.. لا توجد خلوات هي مجرد كلمات مجازية وأوصاف جزئية ليست هنالك أسرار ولا ولا توجد أبدا خفايا وخبايا مع الله بل هو الافتضاح والكشف مع البشر والمخلوقات ربما يصح هذا استعمال مجاز الخلوات نعم قد تخلو غرفتك من بشر قد تستتر من الأعين وتتخفى عن الأسماع وتتستر عن الأبصار قد لا يعلم مخلوق سرك وقد لا يدرك بشر خبيئتك ولا يلحظ أحد خائنة عينك ويقينا لن يدري إنسيٌّ بما يحويه صدرك تخفيه ثنايا قلبك لكن الله يعلم ويرى.

الجريمة الكاملة

ذلك المصطلح الشهير الذي يعرفه القانونيون ويصفون به ذلك المستحيل نعم هو أمر مستحيل لا توجد جريمة كاملة قد توجد في الواقع من خلال المعايير المادية الظاهرة لكن حقيقة الأمر تختلف هذا النوع لا يوجد في الواقع كما أسلفنا؛ لا توجد خلوة.

مهما غُلِّقت الأبواب وأُسدلت الستور وهُيِّئت الأجواء تماما لإخفاء الخطيئة فسيظل دائما احتمال ظهور الحقيقة والافتضاح بين الخلق وكشف الستر أمام الناس = احتمالا قائما كل مستخف بذنبه يدرك ذلك جيدا ويراوده ذلك الهاجس من آن إلى آخر مهما أجاد الاختباء وأحكم الخلوة.

امرأة العزيز أجادت الاستخفاء وغلَّقت الأبواب وأحكمت المداراة والأخذ بالأسباب ولما فاحت ريح الجريمة المنتنة ألقت بدليل إدانتها الحي إلى غيابات سجن مظلم وظنت أنها بذلك قد غلَّقت آخر المتاريس على الحقيقة.

برصيصا العابد الزاهد - ظاهرا - الزاني القاتل - باطنا - هو الآخر أحكم طمس معالم جرائمه بل ودفنها وأهال عليها تراب الأرض متوهما أنه تراب نسيان .

بشير بن أبيرق أيضا ظن أن جريمته كاملة

كان قد سرق درعا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما خشي افتضاح أمره أجاد إخفاء الدرع في بيت يهودي

واليهود في ظنه يمكن ظلمهم فلن يهتم أحد بتحقيق أو بحث إنها بلا شك الجريمة الكاملة

المشكلة أنه لا توجد واحدة

دائما هنالك ثغرة ما قد لا يراها أحد عاجلا بل وربما لا يرونها آجلا لكن هذا لا ينفي وجودها وحتى لو لم توجد الثغرة وافترضنا أن الجريمة بالفعل كاملة والسر في أغوار بئر سحيق فيكفي أنه يرى ويعلم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾

[العلق: ١٤].

الحق إذا كما بيَّنا أنه لا توجد أسرار هو يعلم وهو قادر أن يكشف الستر متى شاء وكيف شاء كل من ذكرتهم وغيرهم افتضح أمرهم وكشفت أستارهم صحيح أن الطرق التي حصحص الحق بها كانت طرقا خارقة للعادة ولم تكن بوسائل مألوفة معروفة فما بين شهادة ينطق الله بها غلاما أو رؤيا يراها ملك مصر أو أخرى يراها أخوة المقتولة على يد العابد المزعوم أو وحي يتنزل على نبي يبريء اليهودي ويفضح السارق وإن كان من بيت أنصاري = إلا أن كل ذلك لا ينفي حقيقة وقوع الفضيحة وإن عدمت الثغرات.

لأنه يرى.

ولأنه لا ينسى ولا يغفل.

ولأنه يمهل لكنه أبدا لا يهمل.

ولأن ستره وحلمه قد يطولان لكن العبد قد لا يعامل بهما وحدهما.

قد يغضب ويأخذ بعد أن يملي ويحلم وحينئذ يكون أخذه أليما شديدا.

وحينئذ تكون الفضيحة وانكشاف الأستار.

بثغرة أو بدون الاحتمال قائم ومستمر إلى اللحظة الأخيرة التي قد تكون بخاتمة على الذنب وتكون الفضيحة بتلبس بعد حضور ملك الموت وربما تؤخر الفضيحة إلى يوم مجموع له الناس حيث تكون على رؤوس الأشهاد إن فلان بن فلان شقي وليس بسعيد وتلك والله الفضيحة الأشد والأفظع كل من تخفى يوما بجريمته يدرك تلك الحقيقة بفطرته وإن حاول إنكارها لذا ففي غمرات غيه وعظيم افترائه وخلف أستار استخفائه قد تجد على لسانه دون أن يشعر: استر يا رب.أعرف مقترفي كبائر وموبقات يخوضون غمارها طالبين منه أن يسترهم ياللمفارقة ينتهكون حرماته طالبين منه العون والستر يسدلون أستارا ويغلقون أبوابا ستشهد عليهم كما ستشهد أيديهم وألسنتهم وجلودهم وسائر أعضائهم.

حسنا هو سيستر

لكن إلى متى؟

لا تدري.

ولا أحد يدري.

وهم يدركون ذلك في قرارة أنفسهم.

يدركون أن الجريمة الكاملة وهم.

وهم خلقته عقولهم.

إن كانت لهم عقول أصلا.

صيد سهل

عندما نذكر ذنوب الخلوات ومعاصي السر تقفز إلى الذهن دوما تلك النوعية المعتادة من المنكرات الإباحيات..

والسؤال هنا؛ لماذا؟

لماذا الإباحيات والتركيز عليها تحديدا؟

ألا توجد ذنوب خلوات أخرى غير مطالعة المواقع الإباحية أو ما كان على شاكلتها من علاقات محرمة؟!

هكذا سأل صديقي مستنكرا وهو يرى أن تكرار هذا المثال يعد نوعا من التسطيح لقضية معصية السر وذنوب الخلوات والحقيقة أن كلامه يحمل قدرا من الوجاهة وإن اختلفت مع بعضه معاصي السر لا ينبغي اختزالها في الجانب الجنسي وحسب الحق أن الكثير من الفواحش الباطنة والخطايا المخفاة تدخل في نطاق ذنوب الخلوات.

لعل نظرة حسد ومشاعر حقد بات أحدنا وهو يطويها في صدره = تكون أشد خطرا من معصية جوارح سرية كالنظر المحرم.

لعل اختلاسا من حقوق الآخرين واعتداء على ملكياتهم أو تقصيرا في حمل أماناتهم بقدر يسير قد لا يلحظه مخلوق يكون عند الله أعظم من مطالعة تلك المواقع.

بل قد يكون رضاه باعتداء الآخرين وقبوله للبغي والجور وكونه ظهيرا للباغين والمجرمين أشد من ضعف نفسه أمام شهوة وزلة ولقد ورد عن رسول الله بإسناد حسنه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داوود أنه قال: «**إذا عُمِلَت الخطيئةُ في الأرض: من شَهِدَها فكَرِهَها كان كمن غاب عنها ومن غاب عنها فَرَضِيَها كان كمن شَهِدَها**»

أقر بكل ذلك وأشهد أن منا من يطوي صدره خطايا أثقل بكثير من تلك التي نضرب بها مثلا لكن لا ينبغي مع ذلك أن ندفن رؤوسنا في الرمال وننكر فداحة الخطب.

من دون الخوض في إحصاءات وأرقام معروفة وقد يؤدي تكرار عرضها إلى تهوين المعصية وإشاعة الفاحشة من حيث لا نريد فيمكن أن نجمل الأمر بجملة مختصرة صريحة.

«لقد صار الصيد قريبا سهلا»

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[المائدة: ٩٤].

نزلت هذه الآية في شأن الصيد يبتلي الله به عباده في إحرامهم حتى لو شاءوا لتناولوه بأيديهم فنهاهم الله أن يقربوه ولقد روي أن هذه هذه الآية أنزلت في عمرة الحديبية حيث كانت الوحوش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون

﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ إذ كانوا يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سرا وجهرا لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره أو جهره ولقد صار الصيد سهلا ميسرا

هل ينكر أحد أن معصية النظر للمواقع الإباحية صارت اليوم هي الأسهل قبل أعوام كان الحصولُ على الصُّوَر والمقاطع الفاحشة صعبا نوعاً ما ومن أرادها كان بحاجة لبعض المجهود وتجهيز أماكن وأجهزة معينة قد لا تتوفر لدى الجميع أما الآن فبلمسة خفيفة على شاشة الهاتف الذكي أو بضغطة زر على حاسوبه اللوحي = تنفتح أبواب الفجور بشتى صورها وينهل منها دون أن يلاحظه مخلوق .

لقد صار مدمن تلك الشهوة لا يحتاج حتى لتغليق الأبواب بل قد تكون زوجه راقدة إلى جواره أثناء مطالعته لتلك الخبائث كما قلت آنفا: صار الصيد سهلا وصارت تناله الأيدي وصار حال كثير منا كأصحاب القرية من بني إسرائيل حين أتتهم حيتانهم شرعا يوم السبت حيث كان تحريم الصيد عليهم كانت الأسماك تتراقص بزعانفها البارزة كالأشرعة

على سطح الماء ولم يستطيعوا المقاومة وكذلك للأسف كثير من أبنائنا وإخواننا اختبار هو وابتلاء بلا شك أن تسهل المعصية وتتيسر سبلها وتكون بهذا القرب من المرء لكن دقة الاختبار لا تبرر الرسوب وإن كانت تبرر الاعتناء والحرص على مواجهة تلك الآفة التي كثرت - ولا أقول عمَّت - بها البلوى.

لأنها قريبة.

ولأنها كثيرة.

ولأنها خطيرة.

ولأنها مهينة دافعة للكثيرين لحقران أنفسهم واليأس من إمكانية تغييرها وقبل كل ذلك لأن الله حدثنا عن الأعين وعن خائنتها

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾

[غافر: ١٩].

ولأنه أمر المؤمنين والمؤمنات بغض البصر

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ❖ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ.. الآيات ﴾

[النور: ٣٠-٣١].

ولأن أشمل وأجمع أوامر القرآن بالتوبة جاءت في ختام الآيتين اللتين تكلم الله فيهما عن غض البصر

﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

[النور: ٣١].

تأمل... جميعا

هي المرة الوحيدة في القرآن التي كان الخطاب بالتوبة جماعيا بهذا الشكل وكأنها إشارة

إلى عموم هذا الذنب وأن الجميع بحاجة إلى توبة منه في لحظة ما أو مرحلة ما لأجل كل ذلك نعم هناك معاصي سر وذنوب خلوات أخرى كثيرة لكن هذا للأسف هو المثل الأشهر وأتمنى أن أكون مخطئا حين أقول: ولعله الأكثر.

أقول لعله..

وأرجو فعلا أن أكون مخطئا.

ما تحوي الصدور

هناك نوع من الجرائم السرية يظن صاحبه أنه لا ولن ينكشف أبدا وكيف تنكشف جريمة غير ملموسة أصلا؟!

أنّى تفتضح خطيئة لا جَرَمَ لها ولا يمكن قياسها بمعيار مادي أو ميزان دنيوي؟!

إنه نوع من ذنوب الخلوات لكن بدرجة مختلفة تماما وفي محل لا توجد أجهزة متقدمة أو حساسة يمكنها استشعار مكنوناته القلب ذلك هو محل هذا النوع من الجرائم.

ها هنا خطايا تخفيها الصدور وتحويها الأنفس وتتكتم عليها الجوارح فلا تظهر منها شيء ذلك الصالح المنفق الصوام القوام العابد فعلا لا قولا..

لا.. إنه ليس ما سبق إلى ذهنك كونه أسير عادة قبيحة يقترفها سرا كما قد تتوقع سبب ذكره في سياقنا هذا ولا هو ينهش بخائنة عينه عورات حين لا يلحظه أحد هو ليس معصوما لكنه بالفعل مسيطر إلى حد كبير على جوارحه وإن أخطأ أو زل فهو استثناء عارض وليس أصلا مطردا.

لكن خطيئته تقبع هناك خلف أضلعه لا تتصور أنك ستلمح بريق العُجب الذي يملأ قلبه حين ينضح إلى عينيه فهو يجيد إخفاؤه جيدا ولن ترى أبدا ابتسامة الزهو والكبر والعلو التي تعلو نفسه وتكاد تقفز إلى شفتيه كلما تأمل ضعف غيره وزلاتهم واطلع على خطاياهم إنه لشدة إعجابه بذاته يكاد يقيم لها صنما يركع له ويسجد.

أما تلك المرأة الطيبة الوقور التي لم يظهر منها إلا كل خير ولم يُسمع من لسانها العذب إلا الدعوات الصالحة والمجاملات الرقيقة لرفيقات دربها اللاتي يقدرن ويحببن جميل خلقها الذي ينافس حياءها واحتشامها.

لن تراها تمشي بالنميمة بين الناس أو تسمعها تخوض مع الخائضات ولن تجدها يوما تمد يدها لتناول بعض فاكهة المجالس – الغيبة – وستبدو لك كمن لا تستسيغ لحوم أخواتها ميتة.

لكن ثمة ظُلمة هنالك في ذات المحل

ظُلمة تعلو قلبها ويعرفها شيطانها جيدا ويحسن استغلالها إن مجاملاتها ودعواتها تخفي جيدا تلك الظلمة لكنها تجد طريقا شيطانيا إلى عينها إنها ظلمة الحسد وكراهية الخير للغير هي لا تطيق رؤية نعمة يتنعم بها الآخرون إن ما في نفسها أمنية تضاد تماما ما تزعمه بلسانها أمنية زوال الخير التي تتصل مباشرة بعينها والعين حق.

أما ذلك الداعية المجتهد والعامل المتفاني الذي لا يترك ثغرا ينفذ منه إلى دعوة الناس وتذكيرهم بربهم ووعظ قلوبهم واستدرار مآقيهم فأنعم بجهده وأكرم ببذله وتفانيه ماله هو وذنوب الخلوات وجرائم السر.

إن وقته مستهلك بالكامل ما بين محاضرات وأسفار دعوية وحلقات فضائية وندوات ومؤتمرات ودورات علمية وأعمال خيرية ومناسبات اجتماعية ومهاتفات وطلاب ومريدين يلتفون حوله يسألونه ويستفتونه ويطلبون نصحه ودعائه.

مثله لا يكاد يجد وقتا ليحك جلده أفيجد وقتا ليخلو بمحارم ينتهكها؟

الحقيقة.. نعم.

حين يخلو بقلبه.

حين يرنو إلى داعٍ آخر فتح له بشيء لم يكن لصاحبنا مثله.

حين ينظر إلى من يراهم أدنى منه علما وأقل بلاغة وفصاحة ولكن قبول الخلق لهم أعظم من قبوله والتفاف الناس حولهم أكبر من التفاف الناس حوله. حين يجد كلمات الثناء والإطراء تسبق إليهم ويتأمل في أرزاق سيقت إليهم وبركات في عيشهم لم يستطع نيل مثلها ولم يذق رغد عيش أو أثر شهرة كالذي ذاقوه.

لحظة.. أوليست هذه دنيا؟

أوكان جهده وبذله لأجلها؟

هل كل ذلك التعب لشهرة أو مال أو تصدر و كثرة أتباع؟

لأجل حظوظ النفس وشهواتها..

وتلك الظلمة التي تتسرب إلى قلبه هو الآخر أهي ظلمة الرياء والسمعة أم تراها قد اختلطت بظلمة كراهية و حقد أسود على ما فضل الله به زملاء له؟

يالها من مشاعر قاسية.

إن صدره ضيق حرج ممتليء بحزن على ما يعتقد فواته ويمزقه اللهاث المسعور ويسيل لعاب طمعه على ما فُضل به غيره .

وهو لا يرتاح أبدا لأنه يرى أن الكل لا يستحقون ما هم فيه بينما هو وحده من كان يستحق هؤلاء ليسوا شرا خالصا لكن لو استسلموا لتلك الجرائم الخفية فلربما وصلوا لذلك دون أن يشعروا.

مشكلتهم أن جريمتهم فعلا بمعيار الأسباب الدنيوية = جريمة كاملة لن يلحظها أحد من البشر.

غاية ما في الأمر أن الظُلمة التي تمكنت من قلوبهم قد تجد طريقا تلقي بظلالها الداكنة من خلاله على وجوههم فتعلو تلك الوجوه ظلمة لن يدرك وجودها إلا ذوي الفراسة والصلاح وحتى هؤلاء لن يستطيعوا الجزم بأنها دليل تلك الجرائم فقط لن يحبوهم ولن يستريحوا في أجوارهم لكن حتى هذه الذنوب والجرائم التي لا توزن ولا تُلمس ولا تدركها الحواس = لا تخفى عليه سبحانه.

هو لا يخفى عليه شيء.

أي شيء.

وفعل القلب ومشاعره والظلمات التي تعتريه = شيء.

﴿ **وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾

[النور: ٣٥].

﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾

[الحديد: ٣].

تكرر هذا المعنى في القرآن أكثر من عشرين موضع بنفس اللفظ

﴿ وَاللَّه بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[النور: ٣٥].

إنه علم الله الشامل ورقابته الشاملة

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾

[الأحزاب: ٥٢].

تأمل مرة أخرى كل شيء

﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

[الطلاق: ١٢].

مرة أخرى كل شيء

ليس فقط السر

بل ما هو أخفى من السر

﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾

[طه: ٧].

والأخفى هو ما تحويه الصدور وتخفيه الضمائر في ثلاثة عشر موضع من كتاب الله يصرح ربنا بهذا علمه ما تحويه الصدور.

﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

[الملك: ١٣].

هذا التكرار ينبغي أن يلفت انتباهنا إلى خطورة هذه النوعية من المعاصي السرية معاصي الصدور ما تحويه أنفسنا والله أعلم به من الخلق حتى من صاحب تلك النفس.

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾

[الإسراء: ٢٥].

أعلم بك من نفسك!

سبحانه حتى الوسوسة اليسيرة التي قد لا تنتبه إليها هو يعلمها هو أقرب إليك منك.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾

[ق: ١٦].

كل هذه الآيات وغيرها وزد عليها ما جاءت به السنة من اطلاع الله على النوايا وما هم به المرء من حسنة أو سيئة ينبغي أن توجهنا إلى وجهة وحيدة الحذر

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾

[البقرة: ٢٣٥].

ليس معنى تمكنك من جوارحك وقدرتك على السيطرة على شهواتك وانتصارك في ميادين الطاعات الظاهرة والمعاصي الملموسة أن قلبك قد سلم لك وأن نفسك قد لانت لم تزل في طريق تحقيق القلب السليم ولا يكون ذلك إلا بمراجعة مستمرة وتطهير وتزكية.

- أيُّ الناسِ أفضلُ؟

هكذا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

فأجاب: كلُّ مخمومِ القلبِ، صدوقِ اللسانِ

قالوا: صدوقُ اللسانِ نعرفُهُ ، فما مخمومُ القلبِ؟

قال: «هو النقيُّ التقيُّ ، لا إثمَ عليهِ ، ولا بغيَ ، ولا غلَّ ، ولا حسدَ»

الخم لغة من التنظيف والتنقية.

يقال خَمَّ البيتَ أي كنسه وخَمَّ البئرَ أي نقاها.

اكنس قلبك وتعهده بالعناية والرعاية

واعلم **﴿ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾**

[البقرة: ١٦].

اللّه وحده من يأتي بما تريد وما تبتغي هو وحده من يخفض و يرفع ويعطي ويمنع مطالبك مهما كانت بعيدة وصعبة المنال فلا يأتي بها إلا هو فلماذا الحقد وما مبرر الحسد؟

ما قيمة المخلوقين لترائي لأجلهم أو لتسمعهم؟

ماذا يستطيع أي مخلوق أن يقدمه لك لا يستطيعه القدير المقتدر سبحانه؟

بل ماذا تملك لنفسك يا مسكين لتعجب بها وتعلو وتتكبر.

حين تدرك أن نجاتك من عنده ورزقك من عنده وتفضيلك وما كتب لك مقدور عنده حينئذ -وحينئذ فقط- سيكون الامر مستويا عندك وستهون تلك الدنيا في نظرك ولن تتمكن ظلمتها وأحقادها وأدران مقاصدها من قلبك.

حين تجعل عبارة « يَأْتِ بِهَا اللّهُ» مبدأ حياتك ثم تتبعها بالبذل والعمل لأجله وحده وابتغاء ما عنده وحسب دون النظر لما في أيدي الناس = صدقني ستنعم و يسلم صدرك من أسقام الحقد وأدران الغل وأوجاع الحسد وظلمات الرياء والسمعة والعجب.

وعندها سيضيء قلبك بالطمأنينة والرضا.

وحب الخير للغير .

إسرار أم مجاهرة؟

حديثان عن النبي ﷺ يشكلان على البعض وقد يتوهموا تعارضا بينهما الحديث الأول عن أقوام ظاهرهم الطاعة وصلاح خارجهم لا تخطؤه عين هم قوامون صوامون فيما يبدو للناس وإن حسناتهم من الكثرة لدرجة جعلتها تشبه بالجبال تخيل أنهم يأتون يوم القيامة بجبال من الحسنات وحينئذ ستدرك حالهم الظاهر في الدنيا وإقبالهم المنظور على الطاعات المورثة لتلك الحسنات الوفيرة لكن هذه الجبال لا تلبث إلا وتتصدع وتنهار متحولة إلى هباء منثور السبب لهذا الحبوط المخيف يوضحه النبي ﷺ في خاتمة الحديث إنها معاصي السر ذنوب الخلوات .

﴿وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا﴾

تلك هي آفتهم وهذه هي مصيبتهم

أما الحديث الآخر فتحدث فيه النبي ﷺ عن خطورة نقيض هذا الفعل المجاهرة

﴿كلُّ أمَّتي مُعافًى إلَّا المُجاهِرينَ﴾

ظاهر الحديث الثاني = تخفيف أثر الإسرار بالذنب وتشديد الترهيب من المجاهرة به إذا فقد يظن البعض كما أسلفت أن ثمة تعارض مع الحديث الأول وما كان على شاكلته من ترهيب ووعيد مترتب على معاصي السر فلا يدري إذا ما عليه فعله أجهر بالذنب أم أُسِرُّ به؟

المجاهرة أفضل أم أن العافية في التستر والاستخفاء؟

أسئلة مشروعة هي؛ وقد يكون لها وجه إذا تم التعامل مع الأحاديث منفردة وبمعزل عن الصورة الكاملة للذنوب والمعاصي وحال الإنسان أثناء مقارفتها وطبيعة الدافع من وراء الإسرار أو المجاهرة.

إن تحديد قيمة أي عمل ترتبط بشكل وثيق بحال القلب أثناء ارتكابه ويشمل هذا الأعمال الصالحة كما يشمل الخطايا والذنوب.

المشاعر المصاحبة للأعمال صالحة كانت أو سيئة = تشكل ركنا مهما من حقيقة تلك الأعمال.

الفرح والحزن.

السرور والغم.

الحب والكره.

الحرص والزهد.

الخوف والاجتراء.

الوجل والاستخفاف.

حسن الظن وسوءه.

التعظيم والاستهانة.

كل هذه المشاعر وغيرها قد يغير وجود أحدها من مقام العمل كلية وينقله نقلات نوعية هائلة قد لا يتصورها مقترف العمل نفسه قديما قالوا لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار.

وروي عن بعض الصالحين قوله: فرحك بالذنب أشد من وقوعك في الذنب.

وتتضافر الآيات والأحاديث على ترسيخ هذه القيمة.. قيمة المشاعر المصاحبة للأعمال أو المترتبة عليها.

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾

[**المؤمنون: ٦٠**].

تأمل.. يقترفون الحسنات ويسارعون في الخيرات وهم أثناء ذلك تفيض قلوبهم بالوجل وخشية عدم القبول هكذا اعتنى القرآن بحال قلوبهم عند الطاعة بوجلهم وبمواضع فرحهم وسرورهم.

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

[يونس: ٥٨].

وكذلك حال حزنهم.

﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾

[التوبة: ٩٢].

هذه وغيرها كثير نماذج لقيمة المشاعر عند طاعة أو قربى وما ينبغي أن تكون عليه في المقابل وردت آيات عديدة في شأن المشاعر المصاحبة لمعصية أو ذنب لعل أوضح تلك النماذج ما وود من ذكر مشاعر المخلفين والقاعدين عن غزوة تبوك ما كانت عليه.

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾

[التوبة: ٨١].

وما كان ينبغي لها أن تكون عليه

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

[التوبة: ٨٢].

كذلك ما ورد من استخفاف البعض بمعصية قذف المحصنات والخوض في الأعراض إبان حادث الإفك.

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾

[النور: ١٥].

ونماذج أخرى لا يتسع المقام لذكرها جميعا تمتلىء بها صفحات كتاب الله وتجتمع كلها على لفت الانتباه لجانب المشاعر وما تحويه القلوب.

تلك القلوب التي لا ينجو من الخزي في الآخرة إلا من اعتنى بها وأصلحها ليأتي ربه وقد سلمت من الآفات والأدران.

﴿ **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ❖ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾

[الشعراء: ٨٨-٨٩].

لأجل ذلك ينبغي النظر ابتداء لهذا المحل ومحاسبة النفس على أحواله التي تظهر جلية واضحة لا لبس فيها هنالك حيث نتحدث في الخلوات.

هذا المتستر قد يكون تستره بالذنب حياءً من صالحي قومه أو درءا لمفسدة الاقتداء به ولعدم تسهيل المعاصي وهوانها على الخلق ومنعا من تكثير سواد العصاة وشيوع الفاحشة بين المؤمنين..

وهو أثناء استخفائه بالذنب لا يستهين بسمع الله وبصره ولا يستخف بمقامه بل ربما كان يرجو منه توبة وعونا على الإقلاع ولذلك لا يريد التورط في فجور معلن يصعب عليه رحلة العودة.

وهو في هذه اللحظات لا يكاد يفارقه الندم ولا تخبو حرقة الألم من قلبه حتى عند وقوعه في الذنب وهو حين تستره يعلم أن مولاه ستير حليم يمهل ويعطي للعبد الفرصة تلو الأخرى لعله يرجع بينما يفعل الناس ضد ذلك وهم لن يرحموا ضعفه وزلته إذا كشفوا ستره.

صاحب هذا الحال وهذا القلب هو بلا شك وإن عصى سرا = أفضل حالا من المجاهر الذي تتحول المعصية معه إلى فجور وفسوق عن أمر ربه يستعرض تفاصيلها ويزهو بارتكابه إياها وهو يدعو الناس ضمنيا لمشاركته فيها أو حتى لا يحمل هم احتمالية اقتدائهم به وشيوع فواحشه فيهم وهذا ما فصله النبي ﷺ في باقي حديث استثناء المجاهر من العافية فيقول في خاتمة الحديث:

﴿وإنَّ منَ المُجاهرةِ أن يعمَلَ الرَّجلُ باللَّيلِ عملًا ، ثُمَّ يصبِحَ وقد ستَرَه اللَّهُ ، فيقولَ : يا فلانُ ، عمِلتُ البارحةَ كذا وَكذا وقد باتَ يستُره ربُّهُ ويصبِحُ يَكشِفُ سترَ اللَّهِ عنهُ﴾

تأمل نداءه.. يا فلان.

تأمل إيجابيته في الدلالة على الذنب واستنانه سنن السوء.

تأمل التفاصيل المتنوعة التي يحكيها والتي يشير إليها حرف العطف بين «كذا» و «كذا»

إنه ليس مجرد مجاهر.

إنه مجترىء فاجر يستحق بهذا القلب المنكوس استثناءه من المعافاة.

لكن هذا لا يعني أن كل متستر أفضل حالا.

هنالك ذلك المستخفي الذي استحق حبوط عمله لأن الأصل عنده كان كما ذكر النبي في خاتمة حديث جبال الحسنات بأن الأصل عنده أن الخلوة = انتهاك حرمة

« أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا»

هكذا بوضوح.

شرط وجوابه = يلقيان بظلال التلازم.

بعض أهل العلم ذكروا أن الخديث في شأن المنافقين.

وأن من وقع في شيء من ذلك لا يحبط جميع عمله كما ينص الحديث فهو ليس منافقا خالصا وإن كان قد تشبه بهم وفيه خصلة من خصالهم وقد قيل فيهم **﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾**

[النساء: ١٠٨]

وهو قد فعلها مرة أو مرات لكن الحديث عن أناس حولوا كل خلوة إلى فرصة للمعاصي وتدنى مقام الحرمة في قلوبهم إلى درجة يكاد معها كل تعظيم أن يزول ويختفي.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾

[الحج: ٣٠]

لعل أخطر ما في هذا النوع من ملازمة الاستخفاء بالمعصية وخشية مقارفها رؤية الناس لحاله أثناءها هو ذلك الافتضاح بينه وبين نفسه.

هذا الصنف بعد حين من إلف الذنب والاجتراء عليه سرا = لا يستطيع أن ينكر في داخله أنه لو وجدت مقارنة بين مقام الله ومقام الخلق في قلبه فإن كفة ذلك الأخير سترجح ودليل هذا الترجيح دامغ يعرفه هو كلما فعله.

إنه استخفاؤه الدائم وهروبه من إبصارهم له ثم عدم اكتراثه التدريجي بسمع وبصر مولاه رغم علمه أنه إليه أسبق وعليه أقدر.

ولو أنه يكترث فعلا كما قد تقنعه نفسه أن يزعم فأين الدليل وها هو واقعه يصرخ بضد ذلك كلما راقبهم و استخفى منهم ولم يستخف منه..

عن هذا الصنف يقول سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما: «**وخوفك من الريح إذا حرَّكت سِترَ بابك وأنت على الذنب، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عمِلته**»

لماذا قال أن هذا الخوف أعظم.

ولماذا قال ابن القيم أن فرحك بالذنب قد يكون أشد عليك من وقوعك في الذنب.

الإجابة مرة أخرى تتمثل في كلمة واحدة **القلب**

إنها المشاعر التي تحدثنا عنها.

الفارق والمعيار الذي يكشف حقائق التعظيم ومقامات الأمور.

إن وُجد مثل ذلك في القلب أثناء الإسرار فقد يجاوز خطورة المجاهر كما فعل ذلك الأخير عندما صاحبت مجاهرته مشاعر الزهو بالذنب والفرح به.

إنه المناط نفسه.

القلب وما يحويه من مشاعر.

الخلاصة أن الحالين - المجاهرة والإسرار - من الخطورة بمكان .

وهذا المكان يحدده القلب وما يعتريه.

لذلك كانت وصيته ﷺ جامعة شاملة وذلك حين أوصى أبا ذر رضي الله عنه قائلا:

«أوصيك بتقوى الله تعالى في سِرِّ أمرِك وعلانيته»

وكذلك فعل في دعائه حين اعتنى بالخطرين معا.

السر والعلن.

لقد كان من دعاء الرسول ﷺ: «وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة»

وأيضا ما في صحيح مسلم من دعاء في السجود «**اللهم اغفِر لي ذَنْبِي كُلَّه، دِقَّهُ وجِلَّه، وأوَّلَهُ وآخِرَه، وعلانيته وسِرَّه**»

هكذا إذاً يتضح الهدف.

غيب وشهادة وسر وعلن.

المعصية تذم في كل الأحوال رغم تفاوتها أحيانا.

والإجابة عن سؤال الذي صدرنا به فصلنا هذا؛ أيهما أفضل المجاهرة أم الإسرار = لا يشترط أن تكون من خلال أحد الاختيارين.

الإجابة نسبية قد تختلف وتتباين حسب الحال كما أوضحت لكن سيظل الخيار الأصح بين السر والعلن = لا هذا ولا ذاك

الأفضل والأضمن والأسلم = توبة

فقط توبة

الجزء الثاني

المخاطر

واهم من يظن أن مخاطر الوقوع في ذنوب الخلوات تقتصر على الأثر الأخروي من تسويد الصحائف وإثقال كفة السيئات ثم العذاب عياذا بالله ولئن قصرت المخاطر على ذلك لكفى بها.

لكن المشكلة أن الأمر يتعدى ذلك بمراحل ويظهر أثره عاجلا في الدنيا وليس فقط في محطات الآخرة حيث تنشر الصحف وتبلى السرائر وتنكشف الأستار.

والمشكلة الأكبر أن مخاطر ذنوب الخلوات العاجلة لا تحد بدنيا المذنب وحسب ولكنها تتجاوزها لما هو أهم.

إلى ما ينبغي أن يكون أهم من اللحم والدم.

إلى ما وُجد الإنسان لأجل إصلاحه.

تتجاوزها لتصل إلى دينه.

إن ذنوب الخلوات ومعاصي السر خطر داهم على الدين والصلاح الشخصي ويمتد أثرها البغيض إلى ما يشبهها من خفايا الدين يمتد إلى القلب والنفس والروح فتلوثها وتعكر صفوها وتغير مفاهيمها.

يمكننا أن نجمع تلك المخاطر والآثار السلبية لذنوب الخلوات في كلمتين

التمرغ والتطبيع.

١. الخطر الأول: التمرغ

يوم مطير هو..

بركة من الوحل على جانب الطريق صنعتها مياه الأمطار المتجمعة في ذلك الجزء المنخفض من الشارع مكونة مزيجا من الطين والماء وقاذورات الطريق.

إنها مخاضة لا تخفى على الأعين

على من يمر بجوارها أن يحذر اتساخ ثيابه أو تعثر قدميه في تلك المخاضة من بعيد بدت تلك السيارة القادمة بسرعة جنونية.

في لحظات كان الماء المختلط بالطين والقاذورات قد تطاير على جانبي السيارة ليصيب المارة الذين قُدر لهم أن يمروا بجوار تلك المخاضة لحظة عبور السائق المسرع.

وبينما يتأففون لما أصاب ثيابهم من آثار ذلك الوحل ويحاولون نفض تلك الآثار عنها إذا ببعضهم ينظرون بحزن ممتزج بسخط وغضب يائس إلى أثوابهم التي كانت منذ لحظات نظيفة فاخرة وقد تلطخت واتسخت .

وبدلا من أن ينشغلوا بتنظيفها وإصلاح ما ألمَّ بها إذا بهم يصرخون قائلين: لا فائدة !!

قد فسد الثوب ولا قيمة لنفض الطين عنه.

الغريب أنهم بعد ذلك اتجهوا والأنظار ترقبهم بدهشة مُنكِرَة إلى بركة الماء والطين ليقوموا بأعجب فعل يمكن توقعه فى تلك اللحظة

لقد قفزوا إلى داخل بركة الوحل ومرغوا أنفسهم في الطين المبتل مرددين منطقهم العقيم: لم يعد شىء يفرق..

قد فسد الثوب ولا قيمة للحفاظ على ما تبقى منه نظيفا.

فلنتمرغ في المخاضة إذاً ، ولنودع كل ما تبقى لنا من نقاء ونظافة وطهر ليختفي كل ذلك تدريجيا خلف طبقة من وحل المخاضة وقذرها.

طبقة سميكة تتجمع على أجسادهم المتقلبة المتمرغة التي تتحول بسرعة إلى نفس الشكل واللون وتكاد تختفي تماما فيها وتصير جزءا لا يتجزأ منها.

جزءاً من تلك المخاضة.

طبعا لا أحد يتصور أن يحدث هذا فى دنيا العقلاء.

ربما فى فيلم هزلى أو رواية ساذجة عن قوم فقدوا عقولهم أو أصابتهم لوثة أطاشت قدرتهم على التفكير السديد.

لكن هذه الصورة الهزلية للأسف تلخص حال أولئك الذين استسلموا للملوث الأكبر لأي قلب كان يوما مؤمنا اليأس القنوط الذي يحدثه الشيطان بعد الوقوع في المعصية من بعد ذلك اختاروا الخيار الأسوأ

خيار التمرغ في المزيد إنه اليأس حين يمتزج بأوضح صور الحماقة.

هذا الصنف من الناس يتعامل وكأنما ينبغى إذا لم يدرك كل الشىء أن يترك جله أو حتى ما تبقى له وقد سيطرت عليهم قاعدة إما الكمال وإلا فلا يتعاملون بهذا المنطق على مختلف الأصعدة.

فإذا عصوا الله معصية تمادوا فى عصيانه ولسان حالهم: ما عادتش فارقة

وإذا قصروا فى طاعة تركوها وباقى الطاعات وكأنما قد سد باب الإصلاح بنفس حجة : ما عادتش فارقة.

وإذا فشلوا فى تحقيق هدف قعدوا وأحبطوا وكأن الحياة قد انتهت ولم يعد لوجودهم معنى أو غاية لأنها مش فارقة خلاص وهكذا دواليك.

هذا النمط يعد نموذجا واقعيا لذلك المثال القرآني البديع عن تلك المرأة الحمقاء التي كلما غزلت ثوبا نقضته كأن لم يكن ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾

[النحل: ٩٢].

نموذج صارخ لحماقة مدهشة لا تختلف كثيرا عن حماقة أولئك الذين اختاروا التمرغ فى الوحل بدلا من أن ينظفوا ما اتسخ ويرتقوا ما تمزق من ثيابهم أو قرروا أن يتلفوا ما تبقى من رصيدهم بدلا من أن ينموا ويستثمروا ما بقى لهم .

أولئك الذين تناسوا ما علمهم ربهم من أنه ﴿ **لَا يَيْأَس مِنْ رَوْح اللّه إِلّا الْقَوْم الْكَافِرُون**﴾

[**يوسف: ٨٧**].

وأن فرصة الإصلاح والتصحيح قائمة ما لم يغرغر المرء وتأتيه سكرات الموت فما أشد حماقتهم وما أقل حيلتهم وما أهونهم على أنفسهم وهم يقبلون التمرغ في تلك المخاضة القذرة التي تكاد ترسم بوحلها شعارهم في الحياة.

شعار : العدمية واليأس

هذا هو أسوأ شعار وأضر خيار ينتهي إليه حال المبتلى بمعصية السر ولا يود الشيطان أبعد من ذلك.

إنك ببساطة إذا يأست هلكت.

لطالما خالط الأمل قلبك ستحاول وستغير وبإذن الله تتغير.

لكن الشيطان لا يصل إلى ذلك المبتغى مباشرة.

الحقيقة أن ثمة طريق طويل يكمن خطر اليأس في نهايته.

لكن البداية لا تبدو هكذا.

هي سقطات يسيرة ظاهرا إلا إن المشكلة في تكرارها.

مرة بعد مرة وسقطة تتلوها أخرى لا يطمح الشيطان من وراء تكرارها بشيء مثلما يطمح في أن يسرب هذا الشعور إلى قلبك شعور اليأس.

المفاجأة أنه قد يكون شعورا مريحا للبعض...

إحساسك أنه لا فائدة وأنك مهما فعلت ومهما حاولت فلن تغير شيئا من نفسك = سيورثك استرخاءً وهدوءاً مرحليا.

لا شيء عليك ولا قيمة لكل ما تنوي أن تفعله ما دمت كل مرة تسقط من جديد = فلماذا إذاً تفعله؟

ترتاح ظاهريا كلما سخرت من فكرة الأمل وممن يحاولون بثها

شعور باللامبالاة سيخيم عليك كلما رددت عبارات الإحباط وستجد تسكينا مؤقتا كلما دندنت بشعارات ترسخ لفكرة القنوط المطلق وستحصل على خدر لذيذ كلما نشرت ثقافة العدمية و الهروب من مواجهة واقعك وتقصيرك وقررت إقناع نفسك إن (مافيش فايدة) و (خلاص بايظة بايظة) ومن الحماقة أن تتعب نفسك لأجل إصلاح شيء قد تم تدميره للأبد.

هكذا يفرح الشيطان وينتشي بتلك الأفكار المدمرة.

إذا اختفى بصيص الأمل ففعلا لا تغيير يرتجى ولكي يستطيع المرء أن يتغير ويغير ينبغي ألا ينطفيء في قلبه وميض الأمل وجذوة اليقين أن الأمر ممكن وأن التغيير مستطاع ومن هنا يبدأ العمل ويبذل الجهد.

من دون هذا فليس إلا راحة اليأس المؤقتة.

لأجل ذلك جاءت الآية واضحة حاسمة قاطعة.

آية لا تخاطب مجرد عاصٍ ولا تبث الأمل في قلب اعتراه فتور عابر أو زل زلة استثنائية.

إنها آية تخاطب المسرف.

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

[الزمر: ٥٣].

لا تقنطوا

هذا هو التوجية الأول والتأسيس المبدئي الذي يسبق الإصلاح والتغيير القادم في الآيات التي جاءت بعد ذلك البداية هاهنا.

نبذ اليأس ونفض غبار القنوط.

هذا أيضا هو نفس ما رسخه النبي ﷺ

ترك الإغراق في المشاعر السلبية التي لا جدوى منها والالتفات إلى الحلول العملية هكذا بيّن في تصويره لحال المؤمن العاصي في الحديث ﴿**لكل عبد مؤمن ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق الدنيا**﴾

تأمل...

هذا عبد مؤمن بشهادة الحبيب ﷺ لكنه مع ذلك يزل ويخطيء وتتكرر نفس الأخطاء.

والحل لخصه النبى بعد ذلك حين ذكر ما ينبغي أن تكون عليه صفة المؤمن تجاه الذنب الذى ضعف أمامه واعتاده الفينة بعد الفينة.

لقد لخص تلك الصفات فى جملة جامعة رائعة جمعت صفات أربعة تتوازن سويا فقال ﴿**إن المؤمن خلق مفتنا توابا نسيا إذا ذكر تذكر**﴾

فمفتنا تعدلها توابا... هو عرضة للفتن وقد يقع فيها لكنه يسارع بالتوبة.

وهو نسيٌّ يقع فى الغفلة ويعتريه النسيان كما اعترى أباه الأول عليه السلام.

لكنه في النهاية يقبل التذكرة والنصح

ويتذكر...

حينئذ لا يعد ما هو عليه إصرارا ولا فجورا ما دامت جذوة الندم متقدة والرغبة في الإصلاح والتغيير لم تزل حية؛ لكنه الضعف البشري وعلى المؤمن أن يحاول اكتساب القوة في مواجهته ولا يكون ذلك إلا باستمدادها ممن لا حول ولا قوة إلا به..

يا عزيزي لا تكره نفسك وضع الأشياء في نصابها ولا تجعل شيئا يحول بينك وبين ربك حتى لو كان تقصيرك وضعفك.

والأهم إياك واليأس والقنوط فهما أعظم أماني شيطانك ومطالبه من ذنبك.

إياك والحماقة...حماقة التمرغ في الوحل.

٢. الخطر الثاني: التطبيع

ما لا ينتبه إليه كثير منا أن معصية السر والمشاعر المصاحبة لها لا تثبت أو تستقر ولا يكون منتهاها ومآلها كما كان مبتداها وأول أمرها في غالب الأحوال.

نعم قد لا يبدأ الأمر باجتراء واستهانة وقد لا يكون استخفافا بحرمات الله ولا عدم اهتمام بحقيقة رقابته وسمعه وبصره؛ بل قد يبدأ بحزن وندم وحرقة تدمي القلب أثناء المعصية وبعدها كما أسلفت.

لكن هل سيظل هكذا؟

هل بعد كل زلة وعلى إثر كل سقطة ستكون نفس الحرقة وسيبقى وهج الندم متقدا كما كان؟

ربما..

لكن الغالب للأسف ليس كذلك.

بعد فترة من الإصرار وعدم المقاومة والتمادي في معصية السر وتطوراتها قد يحدث التصالح معها بل والتطبيع الشامل تجاهها.

قد يفيق المرء ليراجع نفسه فيذهله وقوعه فيها أصلا وقد كان بينه وبينها آماد بعيدة ومراحل عديدة وكانت تفصله عنها أسوار عالية من الخشية والورع وجدر محصنة بالتقوى والزهد والإخبات.

فيتعجب فعلا ويتساءل مستنكرا غير مصدق: كيف وصلت إلى هنا؟!

أنَّى لي تجاوز كل الحوائل وطي كل تلك المسافات؟!

أين ذهبت كل أسوار الخشية وحواجز الورع التي كانت تحول بيني وبين ما هو أدنى بكثير من تلك المعصية؟!

والحقيقة أن دهشته سببها تغافله عن هذه المشكلة

مشكلة التدرج في المعاصي

خطوة أولى خطاها متبعا شيطانه ومصدقا وعده ومغترا بتزيينه

خطوة خطاها ذاهلا عما يحدث وأنه بتلك الخطوة قد وقع في الفخ وأن الخطوة سيتلوها خطوات إن لم ينتبه ويتدارك نفسه.

خطوات سماها مولاه: خطوات الشيطان

خطوة ثم أخرى ثم ثالثة ورابعة..

ظل يتقدم تدريجيا دون أن يلحظ إلا البريق ولا يلتفت إلا للتزيين ورويدا رويدا بدأت قدماه تغوصان في الوحل وهو لا يشعر بملمسه القذر على رجليه.

وفجأة ينتبه ليجد نفسه هنالك وقد تلطخ جسده الطاهر وتدنست روحه الورعة وغاص جسمه في وحل الخطيئة حتى كاد أن يغرق في تلك البقعة التي تؤدي إليها تلك الخطوات خطوات الشيطان..

فالآن يندهش وبعد كل ذلك يتعجب؟!

لكن الأمر كما قلت لا يحدث بغتة ولا تنقلب تلك المشاعر بين عشية وضحاها قد يستغرق ذلك وقتا كبيرا والانهيار يسبقه تصدعات وتشققات في جدر تلك المشاعر الإيجابية ثم تتسع تلك الشقوق تدريجيا حتى تصير النفوس القابعة خلفها عرضة لكل عوامل الإضرار بها والتأثير عليها ثم ينكس الجدار بعد حين ينقلب بناء القيم رأسا على عقب ويحدث التطبيع..

إن الطريق من كون الخطأ خطئا إلى كونه أمرا طبيعيا أو عاديا بل ومستحسنا مستحبا ليس طريقا قصيرا أو سريعا لكنه يمر بدروب طويلة ومسالك ملتوية تلتف حول حقيقة ذلك الخطأ حتى يتحول إلى تلك الصفة القميئة .

عادي.

المعصية صارت شيئا عاديا.

الخطيئة صارت أمرا طبيعيا.

الكبيرة صارت هفوة والصغيرة صارت أصلا مطردا مجرد إنكارها = تزمت وتشدد.

لم يعد المرء كما وُصف حال المؤمن: يرى ذنوبه كأنما هي بأصل جبل يوشك أن يسقط عليه بل صار يراها كبعوض حط على أنفه فأشاح بيده ليزيحه بكل سهولة ويسرصار يقترف أشياء كان يعدها يوما من الموبقات فصارت في عينه أدق من الشعر.

أصبح يقوم عن معصية سره ببساطة ويعود لروتين حياته دون أن تهتز شعرة في جسده ودون حتى أن يختلج قلبه.

لم يعد مكان لتلك الغصة التي كانت تملأ حلقه بعد الذنب وتدفعه للتوبة والإنابة ولم يعد الحزن يعتصر قلبه لما فرط في جنب اللّه.

كل ذلك صار تاريخا بسبب تلك الآفة الحقيرة وذلك الخطر الداهم.

خطر التطبيع.

آفة الاعتياد ومصيبة التصالح مع الذنب وكل ذلك كان التدرج طريقه وكانت خطوات الشيطان هي السبيل الموصل إليه.

لأجل ذلك تأتي ضرورة قطع الطريق عليه وإيقاف خطواته وتتجلى حتمية إيجاد حلول عملية وواقعية لمواجهة تلك المخاطر وخصوصا خطر التطبيع.

أول تلك الحلول وأهمها التعجيل بالتوبة والحذر كل الحذر من تسويفها حتى تضيع الغصة وتزول الرهبة وينعدم الندم وتفقد النعمة.

نعمة الإحساس.

إن الانتفاع بهذه النعمة يعد الحل الأول لمواجهة مخاطر ذنوب الخلوات وهذا ما نفصله إن شاء اللّه في الجزء الثالث من هذا الكتاب جزء الحلول.

الجزء الثالث

الحلول

١. الإحساس نعمة

تلك حقيقة ربما لا نلاحظها أو لا نريد أن نلاحظها نعم .. الإحساس نعمة.

حتى لو لم يكن ممتعا ولا يجد صاحب الإحساس لذة أثناءه فإنه يظل نعمة.

هي جملة تقال كثيرا ويكتبها على الحوائط بعض من يريدون زجر الآخرين عن شيء يضايقهم ويخلو فعله من الإحساس ليذكروهم بهذه النعمة لعلهم يستحيون ويحسون...

حتى المشاعر السلبية.

الشعور بالضيق.

بالحزن.

بل الألم نفسه.

يظل وجود ذلك الشعور نعمة من أوجه عدة.

المشتهر أن وجود الألم في الغالب = نوع من التنبيه المبكر ليدرك المرء أن ثمة مشكلة أو مرض أو مسبب لأذى أو هلكة عليه علاجه أو تحاشيه.

من هنا كان الإحساس نعمة.

بل والألم نعمة.

وتلك الغصة المؤلمة التي تعقب معصية السر وتجثم على أنفاس صاحب تلك المعصية ويختنق بها صدره ولا يدري لها سببا ثم تتوارى خلف أسوار الهموم والشواغل وتحت غيوم الاعتياد والإلف لتقبع هنالك في أغوار الروح وغيابات النفس وتغرق تدريجيا في أعماق القلب = هي نعمة.

بل هي كنز ثمين لو أدرك صاحبها قيمتها.

هذه الغصة لا ينبغي للمرء أن يكرهها فإن وجودها يرتبط بما تبقى في روحه من شفافية الفطرة التي يؤذيها الذنب وتجرحها المعصية.

لا ينبغي أن يكرهها فقد يكون الشعور بها دافعا للروح والنفس والفؤاد كي يسارعوا به لبراح التوبة وسعة المغفرة ولتزول تلك الغصة العاجلة ولا تتحول آجلا لحميم يتجرعه المرء ولا يكاد يسيغه.

ما ينبغي أن يكرهه المرء حقا هو انعدامها.

إن وجودها كما قلنا نعمة وزوالها بغير توبة = إلف وتطبيع مع الذنب.

وتلك هي النقمة التي يعاني منها منكوسو الفطرة من مستمرئي الران المتراكم على جدران قلوبهم = فنادرا ما يلحظون تلك الغصة لأنها تكون قد زالت بعد حين من تكرار التغافل عنها وطمسها.

تكون قد زالت بعد إدمانهم التأجيل..

تأجيل التوبة

إن هذه الغصة و الكآبة التي تخيم على حياة صاحب معصية السر هي مجرد عَرَض ينبهه اللّه به إلى مرض علاجه كما قلنا بسيط يسير لمن يسره اللّه عليه.

علاجه تعجيل التوبة.

استغلال وجود تلك الغصة المبشرة بوجود الندم.

وهذا الندم هو حقيقة الكنز الذي أتحدث عنه.

إنه هو الشرط الأهم للتوبة وبه لخص النبي حقيقتها فقال: الندم توبة

قد يقول قائل: هاهنا مكمن الصعوبة في التوبة ذلك لأن هذا الشرط شعور قلبي يصعب التحكم فيه أو تكلفه.

لكن تلك الغصة التي تشعر بها بعد الذنب أو أثناءه = دليل على وجوده.

وجود الندم.

إلا إنها للأسف لن تدوم طويلا فسرعان ما سيزيلها الانشغال والإلف والتعود كما سبق وبينت.

لذا يجب المسارعة باستغلال وجودها.

فإن أجَّل العاصي التوبة مرة بعد مرة حتى اختفت الغصة وعز وجود الندم = فالأمر لم ينته بعد وإن كان قد ازداد صعوبة.

إن هذا الشعور بالندم يمكن للتائب أن يحاول الوصول إليه إن لم يجده في قلبه ابتداءً.

لكن كيف؟!

من خلال نظرين رئيسين

النظر لمن عصيت

والنظر لعاقبة المعصية

لقد عصيت خالقك ورازقك ومن أنعم عليك بكل ما تتقلب فيه عصيت القادر على أن يسترد نعمه وينزل عليك نقمه ويعجل لك عقوبته.

تلك العقوبة التي لعل أولها وأعجلها = تلك الغصة والكآبة التي سبق وحدثتك عنها.

أما العاقبة إن لم تتب ويتقبل الله توبتك أو يعفو عنك فأنت تعرفها جيدا.

فقط غفلت عنها ونسيتها.

هلم فتذكرها وتذكر حرها ولهيبها.

قل لي بربك إذا تذكرت كل هذا وبذلت وسعك لاستحضار تفاصيله = أفلا تندم؟!

فإن ندمت فأبشر... قد حققت الشرط الثاني من شروط التوبة.

وإن لم تندم فلا تيأس.

لعل الران الذي يعلو قلبك سميك يحتاج إلى مجهود أكبر.

لكن الأهم ألا تتباطأ وتكسل وتؤجل ويخدعك الشيطان بشبهته الأشهر

شبهة «**سوف**»

- غدا سوف أتغير...
- غدا سوف أكون إنسانا رائعا..

- غدا سوف أبدأ بداية جديدة ومختلفة تماما..

- غدا سوف أُقلع عن كل تلك العادات السيئة التي تلازمني..

-غدا سأحل كل مشكلاتي وسأصلح كل أخطائي وأعوض ما فاتني.

دائما غدا..

ودائما سوف..

هذا هو الشرط.

غدا وليس أبدا اليوم.

وغدا هذا قد لا يأتي قط!!

لقد صار (غدا) لدى البعض سجنا كبيرا؛

سجنا قضبانه التسويف وأسواره الشاهقة ينافس ارتفاعها فقط طول أمله وبعد مسافة أمانيه والحقيقة أن التحرر من هذا السجن ليس ترفا اختياريا أو مسألة تحتمل الأخذ والرد؟

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾

[المؤمنون: ٩٩،١٠٠].

﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[الزمر: ٥٨].

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الأنعام: ٢٧].

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾

[السجدة: ١٢].

﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾
[الشورى: ٤٤].
﴿ وهم يصطرخون فيها رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾
[فاطر: ٣٧].

هذه بعض من كثير من الآيات تشترك كلها في ترسيخ هذا المعنى المحوري وتلك الحقيقة المتغافل عنها.

حقيقة ندم المسوِّفين وتحسرهم على تسويفهم.

إنها آيات تبين بشكل قاطع أن ذلك السجن الذي اختار المسوفون المكث خلف جدرانه لم ينفعهم بشيء وأن غالب تحسرهم لما يأتي الغد الحقيقي سيكون على تضييعهم الفرصة حين كانت سانحة.

وحين كان الندم موجودا وحرقة الذنب متقدة وفرصة التحرر من هذا السجن التسويفي البغيض متاحة ميسرة.

أما الاكتفاء بالنوايا الصالحة القابعة خلف «سوف» وغدا» فللأسف ليست كل نية صالحة تنفع صاحبها

تأمل قول إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾
[يوسف: ٩].

هكذا كانت النية صالحة حسنة.

وما أحسنها من نية لولا أنها كانت نية تسويفية.

نعم كانت حسنة.

وهل من نية أحسن من نية الصلاح وقرار التوبة.

لكن تلك النية الصالحة لم تنفعهم.

ولم يستطيعوها.

ولم يطيقوا تنفيذها رغم مرور أعوام طويلة.

ذلك لأنها كانت نية شكلية (ديكورية) مؤجلة سبقها التآمر ورافقها العزم على عمل فاسد
﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾
[**يوسف: ٩**].

لقد كانت نية تخديرية وظيفتها تسكين النفس وتحييدها عند الإقبال على العمل الفاسد لا بأس .. أقبل على الفساد والإفساد وافجر في السر كما تشاء ولا تستحيي من نظر ربك ومولاك = ثم تب بعد ذلك!!

العمر أمامك طويل والتوبة لن تطير فافعل ما بدا لك ما دامت (سوف) في انتظارك هكذا يقول العاصي لنفسه وبتلك المسكنات يهدىء من روعه فينغمس أكثر فأكثر وينسى أن العمل الفاسد لا تصلحه أعظم النوايا ما دام صاحبه يعلم جيدًا أنه فاسد.

قدم التوبة على الفساد واعلم أن (سوف) هذه ليست ملكك ولا بيدك.
وفي هذا فسارع واعجل لربك فإن التؤدة خير في كل شيء إلا في مثل هذا.
إلا في عمل الآخرة.
هيا عجِّل بالتوبة ولا تضيع تلك النعمة وذلك الإحساس الثمين.
الإحساس بغصة الندم.

٢. عقلية الحل..

إن صاحب معصية السر الذي لم يزل الخير متمكنا من قلبه رغم ضعفه أمام معصيته = غالبا ما يكون أشد فزعه وأعظم ندمه في البداية لأجل شيئين رئيسين.

الموت والنفاق

أن يموت على ذلك الذنب.

وأن يكون استخفاؤه من الناس واجتراؤه حين لا يراه إلا ربه = نفاقا يتسرب إلى قلبه حتى يتمكن منه في نهاية الأمر.

الحقيقة أن هذا ندم محمود و قلق لابد منه ومخاوف ينبغي ألا يتم التهوين من شأنها الذي قد يورث يوما تمام توبة وكمال أوبة.

الإشكال أن ذلك القلق وتلك المخاوف قد تتحول إلى **الخطرين** الذين تحدثنا عنهما.

الخطر الأول هو اليأس والقنوط والعجز عن أي تغيير للأفضل.

والخطر الذي يليه هو التطبيع والاعتياد و اللامبالاة أو ما يسمونه (تكبير الدماغ) والمضي قدما في طريق المعصية ما دامت الأمور لا فائدة منها.

لكن هذه المخاوف يمكن التعامل معها بشكل إيجابي إذا فكر الإنسان بعقلية مختلفة.

عقلية الحل

هذه المخاوف يمكن تحويلها كما قلنا من قبل إلى دوافع للتوبة والإنابة.

ثم تحويلها إلى سبل إصلاح بمواجهة كل نوع من تلك المخاوف عبر علاجه المباشر.

أما خوف سوء الخاتمة والموت على تلك الحال وما يكون عليه ذلك من هوان وفضيحة في الدنيا ثم بعث على تلك الحال في الآخرة كما وردت الأحاديث الصحيحة بذلك ويُذكر كثيرا أن من عاش على شيء مات عليه ورغم أن هذا ليس بحديث مرفوع إلا أنها مقولة مشهود من خلال ما لا يحصى أنها تحمل الكثير من الحقيقة .

إذاً فقد يساعد على عدم حدوث تلك الخاتمة على معصية السر ألا تكون تلك المعصية هي غالب حال المرء.

ألا تكون هي المسيطرة على حياته والأهم على قلبه.

ألا يكون الأصل فيه عند الخلوة المسارعة لانتهاك محارم اللّه.

يضعف أحيانا.

يفتن أحيانا.

يزل ويخطيء.

لكن المهم أن يظل ذلك قدر وسعه = استثناءً وليس أصلا وحيدا.

أما عن خوف النفاق فهو في أصله ليس مذموما.

الصحابة خافوا على أنفسهم من النفاق وورد عن بعضهم قوله «**النفاق لا يخافه إلا مؤمن ولا يأمنه إلا منافق**»

مشكلة اتهام النفس بالنفاق تكمن في التسليم بذلك وازدراء تلك النفس واليأس منها

أهم الحلول العملية لتلك المشكلة في نظري = طاعة السر

طاعة لا يعلمها مخلوق سواك.

ربك وأنت فقط.

هذا النوع من الطاعات له أثر عجيب في معادلة معصية السر كأنها رسالة ضمنية مفادها: ليس الأمر كله سواد حالك.

ثمة بصيص من الضوء يلوح في الأفق.

لعلي ممن خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فعسى اللّه أن يتوب علي مع من وعدهم بذلك

ولأن الحديث عن طاعات السر كعلاج ناجع لمعاصي السر مهم وله تفاصيل وجوانب ينبغي تفصيلها فقد أفردت لذلك آخر فصول هذا الكتاب.

ما ينبغي إدراكه وترسيخه أن بديل ذلك التفكير الإيجابي = مزيد من احتقار النفس ومزيد من الازدراء لها فإن أدرى الناس بما تفعله هو أنت وكلما نظر إليك الخلق بتقدير علمت أنت من نفسك ما لم يعلموا وبالتالي يزداد الحزن والهوان.

أما تلك المزاوجة بين الطاعة والمعصية سرا فإنها تنقض ذلك التصور البائس وتضع احتمالية وجود الضعف الإنساني في المشهد وليست فقط مسألة اجتراء واستهانة بسمع اللّه وبصره كما سيحلو للشيطان أن يجعلها الاحتمال الأوحد كي يحدث اليأس والاستسلام وتلك غاية أمانيه وأهم مقاصده.
فإياك أن تحققها له.

إياك أن تهديه أخطر المشاعر التي قد تصاحب إدمان المعصية.
مشاعر اليأس والظن أنه لا يوجد حل لمشكلتك.

مع اللّه دائما هناك حل.

٣. قرار وعزم

إن سبل مواجهة العواقب القلبية لمعاصي السر وذنوب الخلوات مهمة للغاية وتشكل دورا محوريا لكي لا تتحول تلك المعاصي إلى انتكاسة كاملة وتردٍ تام كما أجمع العارفون على كون معاصي الخلوات هي أصل الانتكاسات ونقل ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله.

مشاعر كالتي تحدثنا عنها من يأس وقنوط وإحباط ولامبالاة واعتياد ثم فجور عياذا بالله هي طامات إن تُركت ولم يتم علاجها وسرعة مجابهتها = فإنها قد تؤدي في النهاية لذلك المصير المظلم.

لا مانع إذا من الطمأنة وبث الأمل في إمكانية التوبة وترسيخ معاني التعويض ومحاولة محو آثار خطايا السر من خلال التفكير الإيجابي النابذ للقنوط والقعود و الذي فصلنا الحديث عنه في المنشورات السابقة ضمن هذه السلسلة.

لكن لا ينبغي الاكتفاء بهذا الجانب القلبي أبدا وإلا أدى عدم التوازن كالعادة إلى أثر عكسي غير مرغوب كأن يتصالح عاصي السر مع تلك المعصية ويعتبرها قدرا محتوما لا فكاك منه ومن ثم يغفل أو يتغافل عن ركن مهم وأصل عظيم من أركان العبودية وأصول التوبة.

يتغافل عن القرار

قرار ترك الإثم واتقاء الفحشاء واجتناب الحرمات.

وعن المجاهدة لتحقيق ذلك القرار.

إن هذا القرار الحاسم هو الخط الفاصل بين الصدق والكذب حتى لو تم اختراقه بعد ذلك وضعفت النفس أحيانا عن الحفاظ عليه فإنه يظل معيار صدق نفيس للحظة التوبة إنه قرار الإقلاع عن الذنب.

قرار الكف عن انتهاك حرمات الله.

قرار التوقف عن مبارزته بالخطايا.

وهو قرار صعوبته تكمن في لحظة واحدة ما بعدها أيسر.

لحظة اتخاذه

لحظة مجابهة النفس وقمع الهوى ومواجهة الشهوة بكلمة حاسمة قاطعة كلا.. قضي الأمر انتهينا يا رب.

من دون ذلك القرار القاطع وتلك المواجهة الحاسمة فما التوبة إلا دعاوى ومزاعم لا يصدقها العمل.

على الصادق أن يقرر ويحسم ثم يتبع ذلك بالعزم تلك القيمة الجامعة التي لما لم يجدها مولانا في جدنا الأكبر كان الهبوط من الجنة .

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾

[**طه: ١١٥**].

إن العزم على عدم العودة للذنب شرط أصيل من شروط التوبة ذلك لأنه مرتبط بأمرين غاية في الأهمية.

الصدق والأدب.

فالصادق في رغبته التوبة وندمه على ما فات يود من كل قلبه ومن أعماق روحه أن يقيه الله فيما هو آتٍ.

والتائب لحظيا وهو يضمر العودة يعيش حالة من الكذب ليس على نفسه فقط ولكن الأهم أنه يكذب على ربه.

وهذا هو منتهى سوء الأدب.

الأدب مع الله.

أي توبة هذه التي تكون بين يديها تلك النية الخبيثة بأنه عائد إلى الذنب بعد حين؟!

وأي تأدب مع الله ذلك الذي يزعمه ذلك الذي سولت له نفسه وصورت له أنه سيخدع مولاه؟!

لا أتحدث هنا عن ذلك الذي يعلم من نفسه ضعفا ويدرك احتمالية وقوع الزلات والهنات فكلنا هذا الرجل.

لكن ثمة فارق بين إدارك احتمالية وإدراك يقين وقوع.

ما على الإنسان هو العزم وانعقاد النية الآني في تلك اللحظة التي تحدثت عنها في البداية.

لحظة القرار

عندها لابد أن يقرن بالنية حسن الظن.

لابد من فأل حسن ولو مؤقتة.

لابد من تجاهل لهذا الاحتمال القائم بالعودة.

فإن عدت فأعد الكرة.

عد وتب.

ثم عد فتب.

ثم عد فتب.

ولا تمل فإن الله لا يمل حتى تمل.

٤. ثم الترك

نأتي للكلام العملي لتحقيق الشرط الأخير من شروط نجاح التوبة عن ذنوب الخلوات ومعاصي السر.

هو شرط بديهي جدا.

التوقف.

الترك.

الإقلاع.

والإقلاع هو ببساطة ووضوح = انتهاء

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾

[المائدة: ٩١].

هكذا كان السؤال الرباني عندما قُضي الأمر وحُرمت الخمر.

لقد صارت ذنبا.

معصية.

رجس ينبغي أن يُجتنب.

فماذا أنتم فاعلون.

عندئذ صاح المجيبون: انتهينا يا رب انتهينا يا رب.

والأهم من الإجابة القولية كانت الإجابة الفعلية.

كان الإقلاع والانتهاء العملي.

سالت الخمر في شوارع المدينة أنهارا.

هكذا ينبغي أن تكون الخطوة الأولى مع الذنب عموما ومعصية السر خصوصا.

القرار الحاسم بقطع العلاقة بها وتجفيف منابعها بالكلية.

المشكلة أن ثمة هاجس يظل يدور في آفاق النفس معطلا صاحبها عن اتخاذ القرار الحاسم.

هاجس العودة للذي تحدثنا عنه آنفا.

حين يغلب على الظن أن هذه العودة وتلك السقطة قادمة لا محالة ولو بعد حين فإن صاحب معصية السر يكسل أو لا تقوى عزيمته على اتخاذ ذلك القرار إذ يقول لنفسه ضمنيا: وما الطائل من وراء تلك القرارات التي لا أقوى على تنفيذها.

وإلى متى سأظل أخدع نفسي وفي كل مرة أثبت عجزي وهل من الأدب أن أجرؤ على خداع ربي؟!

هكذا يترجم ضعفه المتوقع مستقبلا إلى عجز واقع حاليا ولا يعطي لنفسه الفرصة أصلا لعلها تصيب هذه المرة ويستطيع الإكمال .

والحقيقة أن النصوص تتضافر للقضاء كلية على مثل هذه الهواجس.

في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْباً. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ. فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْباً. فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً. فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ**» أي: ما دمت تتوب توبة نصوحاً ، مستوفية الشروط ، سالمة من موانع القبول.

قال النووي: وفي الحديث أن الذنوب ولو تكررت مائة مرة بل ألفا وأكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته ، أو تاب عن الجميع توبة واحدة صحت توبته.

وقوله في الحديث: اعمل ما شئت. معناه: ما دمت تذنب فتتوب غفرت لك.

وروي أن رجلا قال يا رسول الله أحدنا يذنب الذنب قال يكتب عليه قال ثم يستغفر ويتوب قال يغفر له ويتاب عليه قال ثم يعود فيذنب قال يكتب عليه قال ثم يستغفر ويتوب قال يغفر له ويتاب عليه ولا يمل الله حتى تملوا»

قال الهيثمي إسناده حسن وقال ابن حجر العسقلاني حسن صحيح.

وقد قيل للحسن البصري: ألا يستحي أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه ثم يعود ثم يستغفر ثم يعود؟

فقال: ود الشيطان لو ظفر منكم بهذا.. أي باليأس من معاودة التوبة والإصرار عليها مهما تكرر نقضها واخترقت شروطها.

هذا التصور يزيل هواجس المستقبل المظلم الذي يزيد الشيطان من حلكته بينما تأتي هذه النصوص ومثيلاتها لتفتح باب قبول التوبة وضرورة ملازمتها بغض النظر عن المستقبل القريب أو البعيد فالحل دائما موجود حتى تأتي ساعة الموت أو تحل علامات القيامة.

معاودة التوبة.

حتى في المثال الذي استفتحت به - تحريم الخمر وانتهاء الصحابة وإقلاعهم الفوري - هل يظن ظان أن هذا لم يشبه زلات وأنه كان إقلاعا دائما من الجميع؟!

الإجابة = لا

منهم من وقع بعدها في الذنب ومنهم من حُدَّ فيه وليست مرة بل مرات حتى قال رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ.

تأمل الكلمة

ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليقيم عليه حد شرب الخمر وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ قبلها ، فلم تكن هذه مرته الأولى ورغم ذلك قال النَّبِيُّ ﷺ: **«لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»**

وكذلك ما ورد من شأن أبي محجن الثقفي وما كان عليه من تكرار الوقوع في ذات الذنب حتى كانت المرة التي أتوا به إلى سعد بن أبي وقاص ليحده في الخمر في مشهد مختلف إنه مشهد جهاد وفداء وهو معهم بين المجاهدين في موقعة القادسية الشهيرة.

ورغم ذلك غلبه ضعفه.

وشربها.

ثم كانت التوبة.

إذاً فالإقلاع لا يرتبط بغلبة الظن وإلا كان كل من عرف عن نفسه تكرار الزلات والسقطات محروما من المحاولة ومطرودا من رحمة الله.

ومن يجرؤ أن يقول ذلك؟

بل الباب مفتوح والتكرار متاح بلا عدد محدد.

فقط الشرط المرافق هو العزم.

إقلاع مقترن بعزم على الثبات وعدم العودة.

حينئذ تصح التوبة بغض النظر عما بعده.

فإن ما بعد له ما بعده.

وتظل القاعدة.

لا يمل ربك.. حتى تمل

٥.احترم لحظات ضعفك ولا تضع البنزين جوار النار

أي ساذج هذا الذي لا يحلو له التدخين وإلقاء العقب المشتعل إلا في قلب محطة الوقود ثم يندهش حين تقع الكارثة.

لا تضع النار جوار البنزين تلك قاعدة بديهية تدركها أبسط العقول.

أذكر قصة لطيفة تُروى عن شيخ فاضل كريم كان قد ابتلي بالتدخين لسنين طويلة وكان ذلك في زمان لم يعرف أثناءه ضرر التدخين كما هو معروف اليوم..

لكن الرجل قرر الإقلاع وكان قراره حاسما.

ولقد نجح بالفعل.

المشكلة في هذه الرواية أنها لم تنتهي عند ذلك.

رجل ابتلي بعادة ثم تمكن من تركها = هذا ليس خبرا يستدعي انبهارا.

لابد من بعض التوابل والبهارات التي تضفي نكهة لذيذة للقصة.

تقول الرواية أن الشيخ الفاضل أصر على وجود علبة السجائر في جيبه لا تغادره طالما كان حيا ليثبت لنفسه أنه قادر على المقاومة وأنه أقوى من أي عادة تتمكن منه وتذله إنه يستطيع الانتصار فعلا وها هي المغريات في جيبه لكنه لا يمد يده وينهل منها.

لا أدري حقيقة تلك الرواية ولا صحتها ولكن بصراحة لا أقتنع مطلقا بمثل هذا النسق من تكلف التحدي مع النفس سواء صحت أم لم تصح.

إن احترام لحظات الضعف مهم حقا

روح التحدي والإرادة وهذا الكلام التنموي البراق له مقامه بلا شك لكن المبالغة في تصديره مع كل حالة يعد في أحيان كثيرة من التشرف للفتنة.

ومن تشرَّف للفتنة = استشرفته.

خصوصا مع تلك المعاصي التي ترتبط بشكل من أشكال الإدمان كمعاصي السر وذنوب الخلوات.

بل مع عموم المعاصي.

«ولا ترجِعْ إلى أرضِك فإنَّها أرضُ سوءٍ»

تلك كانت نصيحة الرجل العالم لقاتل المائة نفس حين أراد التوبة تلك الأرض التي شهدت جورك وفجورك وألفت بطشك واعتدائك على حرمات الله لا ينبغي أن تظل فيها إذا صدقت في مطلبك .

التوبة = انقطاع وإيقاف للذنب.

وبالفعل غادر الرجل أرض السوء وصدق فكان القبول.

هكذا تكون أولى خطوات التعامل مع إدمان المعصية.

اجتثاثها وتجفيف منابعها وليس تحديها وإحسان الظن في نفس أمارة وخلق أخبر خالقه أنه ضعيف.

وإن أضعف أحوال النفس يكون تجاه ما أدمنته طويلا ومن تشرَّف للفتن = استشرفته

حتى في حالات إدمان المخدرات أو الخمور ستجد من المتعارف عليه لدى المعالجين النفسيين وخبراء التعامل مع تلك الحالات أن من أهم الخطوات اللازمة لنجاح العلاج = تغيير العوامل التي أودت بالمدمن إلى طريق المخدرات وليس فقط وقف استخدامها فالعديد من برامج إعادة التأهيل النفسي للمريض أساسها هو عملية الإبعاد عن المخدرات والكحوليات دائمًا ، وليس فترة مؤقتة ثم الانتكاسة مرة أخرى فيجب أن يشمل البرنامج كافة الجوانب التي تضمن ابتعاد مدمن المخدرات والكحوليات عن إدمانه وعدم التواجد في الطريق المؤدي إليه.

ومن هذا التأهيل المتعارف عليه تجنب المخاطرة المباشرة ويضرب لذلك مثل بعدم الذهاب مرة أخرى إلى الحي الذي تم استخدامه للحصول على المخدرات والابتعاد عن

البيئة التي شاركها المدمن تعاطيه.

ببساطة الاجتثاث الكلي والانقطاع الكامل عن أسباب المعصية والسبل المؤدية إليها هو الحل المبدئي الناجع.

ولنأتي للمعصية الأشهر والأكثر انتشارا اليوم كمثال .

تضعف وحدك أمام المحمول وتنتظر حتى يخلو المكان لتقضي وطرك مما حرم الله.

قد يكون الحل يا صديقي أن تتخلى عن المحمول نفسه إلى حين.

أو لو اقتضى الأمر إلى أن يأتيك اليقين.

إلى نهاية حياتك.

نعم.. أعلم أن البعض سينتقد اختياري لهذا الحل لكن والله كثير من الحالات لا سبيل لها إلا ذلك.

وحين تقطعت بهم السبل وفشلوا في كل المواجهات مع المعاصي المتعلقة بالإباحية = كان اختيار ترك الجهاز الذكي والاكتفاء بجوال بدائي يتصل ويستقبل ويتلقى الرسائل.

وكانت النتيجة جيدة في أغلب الحالات.

فقط حين صارحوا أنفسهم أن العالم لن ينتهي وأن الدنيا لن تخرب حين يغادروا الشبكة العنكبوتية.

وحين أقروا بينهم وبين أنفسهم أن الجنة أغلى وأن ضرر النار أكبر من ضرر الترك.

وحتى أولئك الذين ترتبط أعمالهم بشكل أو بآخر بالشبكة ووسائل التواصل.. أشك كثيرا أنهم سيعجزون عن التقنين.

يمكنهم الاكتفاء بوجود الإنترنت في مكان عام أو مكان مكشوف في بيوتهم بحيث لا يخلون أبدا مع سبب المعصية.

فقط لو صدقوا لهداهم الله إلى حل.

أعجبتني وسيلة ذكرها لي أحد المبتلين بدخول المواقع الجنسية ممن يصعب عليهم قطع العلاقة بالهاتف الذكي .

لقد استعان ببرنامج فلترة أو رقابة من تلك البرامج التي يستعملها الآباء كي يعجز الجهاز عن الدخول حتى لو أراد صاحبه.

استغل الرجل لحظة قوة واستعان بها على لحظات الضعف وفعَّل البرنامج وجعل له كلمة سر صعبة جدا وكتب تلك الكلمة في ورقة أعطاها لمن يستأمنه عليها وطلب منه ألا يعطيها له أبدا وإن طلبها وإذا ما اضطر لفتح البرنامج لسبب تقني فيكون صاحبه معه ربما كان لدى المتخصصين حاليا ما هو أحدث خصوصا أن هناك حملات طيبة لمن أراد الإقلاع عن هذا الذنب المستشري لكن ما أعجبني في صاحبي هذا أنه احترم اللحظة احترم لحظة ضعفه.

وتلك اللحظة آتية فكذلك خلقنا ﴿**وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا**﴾

[**المائدة: ٩١**].

بالطبع هناك وسائل عملية أخرى نتحدث عنها تباعا لكن لابد أولا من ترسيخ المبدأ.

مبدأ احترام لحظات الضعف والمحاولة الصادقة لاقتلاع المشكلة من جذورها وتجفيف منابعها وإيقاف النزيف المستمر.

نزيف الحياء في الخلوة.

ونزيف الحسنات.

هذا النزيف الذي لا ينبغي أن يدهش أو يفاجيء صاحبه.

لكنه للأسف كثيرا ما يندهش لذا أوجه إليه تلك الرسالة التي يلخصها عنوان الفصل التالي.

٦. هذا ما جنته يداك فلا تندهش

يعلم جيدا ضعفه أمام شهوته ويدرك عدم تحكمه في بصره وقلة سيطرته على أهوائه خصوصا ما كان له علاقة بالمرأة لكنه مع ذلك يصر على التواجد في بيئات التبرج والاختلاط المفتوح ويترك لنفسه العنان.

ثم يندهش..

يندهش مما آل إليه حاله و يتقمص دور من فوجيء بنهاية طريق معلوم إلى أين يؤدي وذلك حين يجد نفسه وقد انغمس في العلاقات المحرمة وخاض في وحل الخطيئة ولم يفق إلا وقد وقع المحظور وكانت الفاحشة.

محبة للغيبة ومتلذذ بالنميمة يدمنان لحوم البشر التي ينهشانها بنهش أعراضهم وأعراضهن والخوض في ذلك مع الخائضين ورغم علمهما ذلك عن نفسيهما إلا إنهما يصران على التماس مجالس الخوض وحفلات الاستطالة في الأعراض ولا يهدأ لأحدهما بال حتى يجدا مكانا بينهم .

ثم يندهشان..

يندهشان من شدة ضعفهما أمام تلك المعصية وعدم قدرتهما على التوبة منها.

صالح في العلن عليه سمت التدين وعلامات التقوى وأمارات الوقار؛ ما أن يخلو بهاتفه أو شاشة حاسوبه حتى تكاد ترى بعين الخيال بروز مخالبه واستطالة أنيابه واشتعال عينيه والشعر الكثيف يكاد يخفي ملامح وجهه وكأنه مذؤوب في فيلم رعب رخيص يتحرش بهذه ويراسل تلك ويجوب المواقع نهما ينشد فضائح وعورات.

ثم يندهش..

بعدما يقضي وطره يتساءل مندهشا كيف انقلب حاله لهذه الدرجة وكيف وصل لتلك

الحالـة مـن الفصـام والازدواجيـة والتبايـن بيـن السـر والعلانيـة.

إن المثير للدهشة في الحقيقة هي تلك الدهشة..

تلك الدهشة التي تنتاب أولئك وأمثالهم.

مما يندهشون وقد فتحوا كل باب وولجوا كل طريق يؤدي إلى هذا المصير.

«إنك إن تفتحه تلجه»

«من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»

«من وقع في الشبهات وقع في الحرام»

«من تشرف لها استشرفته»

إن قـرار الإنسـان الإقـلاع عـن الذنـب لتتـم أوبتـه وتصـح توبتـه وتحويـل هـذا القـرار لفعـل بتوقفـه عـن المعاصـي التـي ابتلـي بهـا واجتثـاث وجودهـا مـن جذوره = لابـد بعـده أن يأتـي دور تجفيـف المنابـع أو الوقايـة التـي قـد تكـون خيـرا مـن العـلاج.

نعـم هـي القاعـدة التـي صـار البعـض مؤخـرا فـي إصـرار عجيـب علـى تسـفيهها والحـط مـن شـأنها.

قاعدة سد الذرائع.

صحيـح أن التوسـع فـي تطبيـق هـذه القاعـدة قـد أدى إلـى بعـض العنـت والتضييـق وصحيـح أن مقـام الفتيـا والأحـكام الشـرعية يختلـف عـن مقـام الـورع واتقـاء الشـبهات للاسـتبراء للديـن وصحيـح أن الخلـط بيـن هـذه المقامـات قـد يـؤدي إلـى تنفيـر وتشـديد لكـن كل ذلـك لا يعنـي نسـف تلـك القاعـدة مـن أصولهـا وإنـكار وجـود تلـك القيمـة التربويـة التـي تلعـب دورا رئيسـا فـي الوقايـة مـن الذنـب ابتـداءً.

قيمة الورع.

وقيمة سد الذرائع

لهـذا رسـخ النبـي ﷺ لكـون مـن حـام حـول الحمـى يوشـك أن يقـع فيـه وأن مـن وقـع فـي الشـبهات وقـع فـي الحـرام.

بل إن من المحرمات ما يرى الفقهاء أن تحريمها لغيرها وليس لذاتها ولعل أشهر أمثلة المحرم لغيره = النظر للنساء الذي هو طريق للمحرم الأكبر منه وهو فاحشة الزنا ولذلك نهى اللّه عن مجرد الاقتراب وليس فقط الوقوع

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾

[الإسراء: ٣٢].

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾

[الأنعام: ١٥١].

تأمل.. مجرد الاقتراب.

بعد ما تحدثنا عن قرار الإنسان تحقيق شرط الإقلاع عن الذنب لتتم أوبته وتصح توبته وبعد أن يحول هذا القرار لفعل وينقطع فعلا عن معصية السر ويتوقف لوهلة عن ذنوب الخلوات التي ابتلي بها ويجتثها من جذورها = يأتي دور تجفيف المنابع أو الوقاية التي قد تكون خيرا من العلاج.

ما المشكلة في أن تقلل خلوتك إلى الحد الأدنى لحين برئك من هذه الآفة.

أن تصبر نفسك مع صحبة صالحة كما أحب لك ربك.

أن تشغل نفسك قدر وسعك وأن تجهدها في رياضة أو عمل أو أي نشاط مشروع يقضي على فراغك.

أن ترجع إلى بيتك وقد نضبت طاقتك.

أن تترك بيئة المعصية وأن تستبدلها.

أن تجعل بينك وبين المعصية أسوارا وحواجز وحجرا محجورا.

أن تتوقف عن الحوم حول الحمى والتهاون في انتهاك الحدود الفاصلة التي تعرفها جيدا

أن تشد وكاءك وألا تحمل قربة مثقوبة.

فإن يا صديقي أصررت أن تفعل = فلا تندهش

لا تندهش فهما يا عزيزي يداك وفوك.

يداك أوكتا وفوك نفخ .

هذا المثَلُ العربي البليغ يضرب لِمَن كان سبب هلاكه مِنْه وأصل مآله = اختياره.

ثم يندهش .

يُروى أنَّ قومًا كانوا في جزيرة من جزر البحر قديما وكان دُونَها خليج من البحر فأتى قومٌ يريدون أن يَعبروا إليهم فلم يَجدوا معْبرًا فجعلوا ينفخون أسقيتهم التي يستعملونها لحمل الماء وتكون من الجلد المحكم.

وبعد ملئها بالهواء يربطونها بوكاء والإِيكاء هو شَدُّ رأس السقاء بحبل ونحوه ثم يَعْبرون عليها كما يعرف اليوم بالعوامة أو قوارب النجاة.

وكان معهم رجلٌ عَمدَ إلى سِقائه فأقَلَّ النفخ فيه وأضْعَفَ الإيكاء والربْطَ له فلما توسَّط الماء خرج الهواء من الرباط الضعيف الذي لم يحكمه حتى لم يَبق في السِّقاء شيء وأوشك الرجل على الغرق فنادَى رجلاً مِن أصحابه: أن يا فلان ، إني قد هلكت.

فقال صاحبه من بعيد: ما ذنبي؟

«يداك أَوْكَتا وفوك نفَخ»

فذهب قولُه مثلاً.

حين يندهش الإنسان مما وصل إليه حاله ويفاجأ بتردي مآلاته فلابد هنا من استحضار هذا المشهد أو ما يبسطه المصريون بمثلهم الشعبي اللطيف.

«اللي بيشيل قربة مخرومة بتخر على دماغه»

لماذا يندهش إذاً وهو الذي أصر على حمل القربة غاضا الطرف عن الثقب الكبير الذي يتوسطها كما تغافل صاحبنا الأول عن وهن الوكاء وقلة الهواء.

إنه مبدأ المسؤولية عن المآلات من خلال البدايات والاختيارات.

بدايات الطريق والاختيارات التي تؤدي إلى نهاية وحيدة معلومة.

الغرق..

ففيم الدهشة؟!

٧. دينك واقعي

ولأن هذا دين واقعي لا يخاطب أتباعه خطابا خياليا أو يطالبهم بأمور خارقة يستحيل تحقيقها = فثمة حلول عملية تجد الشرع يضعها كوسائل واقعية يمكن لمن أراد العلاج أن يلجأ إليها.

إنه التفكير الإيجابي والبحث المضني عن الحل.

سورة النور كنموذج قرآني لطرح مشكلة ثم بيان الحلول الواقعية لها تؤصل بوضوح لذلك المنهج القرآني المتوازن والمتكامل في التعامل مع المشكلات المجتمعية والقنابل الاجتماعية الموقوتة وتعرض سبلًا قويمة لعلاجها بشكل تتضافر فيه العقوبات الترهيبية جنبا إلى جنب مع سد ذرائع المعصية وذلك كله إلى جوار تربية المجتمع تربية إيمانية ومراعاة الوازع الديني في معالجة تلك المشاكل.

المشكلة المطروحة كمثال عملي في السورة لها تعلق بالجانب الذي نتحدث عنه كمثال متكرر لذنوب الخلوات.

شهوة الجنس

في سورة النور كان الطرح لمشكلة الفاحشة وانتشارها وكيفية معالجة ذلك في مجتمع حديث عهد بالرايات الحمراء وخيمات الزنا والفجور وسيطلب منه الكف عن ذلك وسيوصف مآل كل هذا بأنه فاحشة ومقتًا وساء سبيلًا.

ومن خلال علاج السورة لتلك المشكلة يتبين المنهج السديد للتعامل مع تلك التحديات فليس الأمر عقوبة وحسب ولكن هناك إجراءات متعددة.

سنجد إجراءات احترازية لسد الذرائع والتي تشمل الأمر بالستر وضرب الخمر على الجيوب وعدم التبرج والتكشف تقليلًا لدوافع الشهوة ومثيراتها وأيضًا الأمر بغض البصر

وكذلك تيسير الزواج حتى للفقير والحض على الاستعفاف لمن لم يجد زواجًا وكذلك وضع أسس للآداب الأسرية التي تعين على التعفف وتجعل للبيوت وحجراتها حرمة وحفظًا.
وسنجد الإجراءات العقابية الرادعة التي تأخذ على يد من وقع في تلك الفواحش ومن ساعد على ذلك بنشره للفاحشة وتهوين قدرها في القلوب من خلال قذف الناس بها واستسهال ترددادها أو من خلال إثارة مكامن الشهوات وفتنة الخلق بالمغريات التي توقظ دوافع الفاحشة في نفوسهم.
وقبل كل ذلك والأساس الذي يبنى عليه علاج المشكلة وتحدثنا عنه مرارا وهو التوجيه الإيماني والموعظة البليغة التي ترسخ الوازع الداخلي وتؤصل للضمير العقدي الذي يرفض المعصية ابتداء لأنها معصية ويبغضها لأنه تبعده عن نور السماوات والأرض وتغرقه في بحر لجي من الظلمات المتراكبة وتحجب عنه ضياء الطاعة والقرب.
ذلك الضياء الذي يلتمس في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.
إنها إذاً الحصانة الإيمانية قبل الحصانة العقابية أو الاحترازية.
حصانة يحصلها المجتمع من خلال التعبد وتسبيح الله بالغدو والآصال في تلك البيوت العامرة التي تتشرب فيها القلوب نورًا وطهرًا يزيل منها أدران الفحش والتفحش.
بذلك التوازن والتكامل تعالج المشاكل المجتمعية وليس فقط بسوط عقاب أو سد ذريعة واحتراز.
وفي السنة النبوية سنجد المنهج نفسه.
الحلول العملية والواقعية المباشرة والصريحة.
رجل يريد العفاف = عليه إذاً بالنكاح وكان حقا على الله عونه كما صح بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ
تأمل.. ماذا يريد؟

العفاف والكفاية بالحلال.

يريد أن يعف نفسه وأن يحصنها ضد ضعفها أمام شهوتها.

دونه إذاً الحل الشرعي الواضح.
عليه بالنكاح والله في عونه.
الزواج إذاً حل ناجع.
لكن ثمة إشكالين في هذا الحل - الزواج - سيسارع البعض بطرحهما
الأول عدم الاستطاعة.
والثاني وقوع بعض المتزوجين في ذنوب الخلوات التي نتحدث عنها.
ولنبدأ بالإشكال الأول فالإجابة النبوية عنه معروفة مشتهرة رغم أنه يفترض أن يطمئنه الوعد المبهر = أن الله في عونه.
لكن ماذا لو لم يستطع؟

هو الصوم إذاً.

«ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»

لكن كيف يكون الصوم حلا عمليا؟
معلوم أن الصوم يقلل الشهوات إلى أدنى درجاتها وقد ذهب كثير من العلماء إلى تعليل نصح النبي من لم يستطع الباءة فلم يتمكن من الزواج بالصوم فهو جُنة ووجاء وترس في وجه الشهوات.
وهو كذلك تدريب عملي رائع على المراقبة ومن ثم التقوى.
أثناء الصيام يحقق العبد ذلك المقام الذي كان يظنه بعيد المنال يصعب الوصول إليه مقام الإحسان .
أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه أن تعلم أنه يراك.
تستطيع مرارا أثناء الصيام أن تأكل أو تشرب دون أن يراك مخلوق ومع ذلك لم تفعل تستطيعين أثناء تذوق درجة الملوحة بطرف لسانك أن تكملي تناول ما الملعقة لكنك لم تفعلي.

كان بإمكانك وأنت تتوضأ أن تبالغ في المضمضة وتذهب بقطرات الماء إلى جوفك الجاف ترطبه ولكنك مع ذلك أصررت على بصقها رغم أنه لا أحد يراك.

كل هذه المشاهد وغيرها كثير هي تجلٍ واضح لحالة المراقبة التي يصل إليها الصائم بهذا المران القلبي من خلال إمساك الجوارح عن الشهوتين.

رسالة ضمنية أنك تستطيع.

نعم تستطيع.

تستطيع أن تراقبه وتتقيه في سائر أحوالك ولقد أثبت لك الصيام ذلك.

أثبته بالدليل القاطع ولم يعد متبقيا إلا أن تكمل الطريق وتتغير وتحصل تلك الغاية التي بينها الله للصيام.

غاية التقوى.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ ﴾
[البقرة: ١٨٣].

ومن نفس المنطلق والأصل الذي بني عليه الحض على الصيام لمن لم يستطع الزواج = نستطيع أن نقيس عليه كل ما أدى إلى ذات المقصدين.

- المران على المراقبة والتقوى.
- وتقليل معدلات الشهوة إلى حدها الأدنى.

يرى البعض أن للأمر بُعد بدني ومن هنا يكون هناك وجه لمن ينصحون الشباب بممارسة الرياضة والأنشطة التي يفرغ الإنسان طاقته فيها فيقلل هذا من فورة شهوته ويحجم انشغاله الزائد بها.

بشكل أبسط وكما يقال بالعامية المصرية «يتهد حيله» ويستغل فائض طاقته فلا يكن كل همه تلك الشهوة المستعرة التي لا يستطيع إشباعها بطريق عاجل.

هكذا يتم طرح حلول لمن لم يستطع الباءة.

فإن كان مستطيعا وتزوج ولكنه رغم ذلك لم يتوقف ولم يكتف.

هنا يبرز الإشكال الثاني في حل الزواج ويتمثل في وقوع بعض المتزوجين في نفس المشكلة والبلوى العامة.

دعونا نعترف أن هناك بعض المتزوجين وليست لديهم مشكلة مع زوجاتهم ورغم ذلك يقعون في ذلك النموذج الذي نتناوله من معاصي السر وذنوب الخلوات.

نموذج إطلاق البصر فيما حرم الله وإدمان الفحش في الخلوات.

أن تُنزَعَ الرؤوس من الرمال وأن نعترف أن ثمة مشكلة فإن ذلك يمثل بداية الحل.

أما ذلك السلوك النعامي الذي يصر البعض على التمسك به فيدفنون رؤوسهم متلذذين بهدوء كاذب تمنحه لهم تلك الرمال التي تحيط بآذانهم وأذهانهم = فذلك للأسف خداع ساذج للنفس وللناس.

متزوج ويدمن الإباحية في السر = واقع موجود ومعروف للأسف.

لكننا تحدثنا من قبل أن الزواج حل عملي من ضمن خطاب الشرع الواقعي وأنه من أهم سبل التعفف فلماذا إذاً لم يفلح مع صاحبنا المتزوج .

بداية لابد أن نتفق على أصل مهم في شأن عموم المعاصي.

قد يقع الإنسان في المعصية رغم عدم احتياجه إليها ورغم كفايته ورغم وجود أسباب تعففه.

رغم كل الوسائل العملية التي وضعها الشرع للحد من الوقوع في المعصية فقد لا يمتنع الشخص في النهاية وقد يزل ويغوى.

لعل أوضح نماذج ذلك ما حدث لنبي الله آدم وزوجه.

لقد تم التحذير من الذنب ابتداءً وتم التحذير من العدو الدافع لهذا الذنب أيضا وتم بيان خداعه وتربصه وتحايله وتم قبل كل ذلك توفير أعظم البدائل فدونهما الجنة بكل ثمارها وأطيابها يأكلا منها رغدا حيث شاءا.

رغم ذلك أكلا من الشجرة وأزلهما الشيطان عنها.

لماذا إذا هذه الشجرة بالذات؟

لماذا ثمرتها المحرمة رغم توفر البدائل؟

هذه طبيعة الإنسان.

ينسى.

ويضعف.

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾

[طه: ١١٥].

هكذا كان الجد الأكبر وكذلك حال بنيه.

لكن هذا لا يعني أن السبل قد نفدت وأن الوسائل العملية قد نضبت.

دوما هناك وسائل بديلة وخطط أخرى.

ولنعد إلى مشكلة وقوع بعض المتزوجين في معصية السر إياها وهذه كما اتفقنا حقيقة لا يسع إنكارها .

الرجل قد يكون متزوجا لكنه مع ذلك يشتهي أخرى أو أخريات

فهل غفل الشرع عن ذلك؟

معاذ الله.

«فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ، فَإِنّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ»

بذلك نصح رسول اللهﷺ المتزوج.

فليأت أهله.

إذاً فهو متزوج ورغم ذلك علم النبي ﷺ أن الزواج في ذاته لم يحل وحده بين الرجل وبين اشتهاء أخرى.

لذلك نصحه النبي أنه متزوج وأنه يستطيع أن يسد احتياجه من طريق حلال بدلا من الاسترسال خلف المحرم.

لازال الأمر واقعيا إذاً كما هي عادة الشرع.

لكن ماذا لو زل من جديد؟

ماذا لو لم يكتف بزوجه؟

ماذا لو ظل ضعيفا أمام شهوته وظل يسقط في ذنوب خلواته رغم كونه متزوجا؟

للأسف جرى العرف الخاطيء حاليا على اتهام هذا النوع من الرجال بأنه دنيء النفس أو شره لا يشبع ولا يرتوي والحق أن هذه الصفات قد لا تنطبق عليه إلا لو قرر الاسترسال في الحرام .

لكن رجل يبحث عن حل ويريد العفة ولم يجدها في زواجها فليست المبادرة بوصفه بتلك الصفات = صوابا

بغض النظر عن كون احتمالية وجود تقصير من زوجته قائمة وبدون استطراد حول حقيقة كون القلوب بيد الله يقلبها كيف شاء وأن من الممكن كون تلك القلوب والمشاعر قد تغيرت بينه وبين زوجه فإن تباين الطبائع والغرائز بين البشر أمر مستقر لا يمكن إغفاله.

ليس معنى تعاظم شهوته أنه شخص سيء أو رجل شره.

خصوصا إن ظل مريدا للتعفف ساعيا إليه.

من هنا يتكرر الحل العملي في المقال السابق والمبني على نصيحة النبي صلى الله عليه وسلم الشهيرة.

الزواج أو الصوم.

لكنه متزوج بالفعل.

نعم... هو التعدد إن كان مستطيعا أو المزيد من الصوم وما قسناه عليه في المقال السابق إن لم يستطع.

ليس خائنا وليس دنيئا ولا شيء مما رسخه الإعلام المعاصر وللأسف صار شبه عرف عند كثير من أخواتنا الفضليات.

التعدد كأي تشريع محكم من رب العالمين له فوائد جليلة ويعد علاجا لكثير من الأزمات المعاصرة.

إلا إنه يظل علاجا وليس العلاج الوحيد.

هو حل أحيانا.. وليس الحل الجامع لكل شيء.

الحق أن التعدد تجري عليه أحكام الشرع الخمسة حسب حال الشخص نفسه.

هو مباح وقد يحرم أو يكره في أحوال كالظلم والجور لإحدى الزوجات وقد يستحب بل يجب في أحوال أخرى.

نعم.. قد يوجب على البعض.

ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والعفة واجبة.

هل الأولى أن يعصي المرء ويطلق بصره ويقترف مقدمات الزنا التي قد توقعه بعد ذلك فيه عياذا بالله أم أن يفعل شيئا أباحه الله بنصوص قطعية الثبوت والدلالة؟!

الإجابة واضحة لا لبس فيها لكن للأسف غلبة الهوى تحجبها عن البعض.

إن بعض حالات الشرع يباح فيها ضرر أخف لدفع ضرر أكبر.

تخيل أن من العلماء من أباح الاستمناء لدفع الوقوع في الزنا ولعل أشهر ذلك ما روي عن الأحناف من إباحته إذا خشى الوقوع في الزنا -حقيقة- إن لم يفعل ذلك الفعل وألا يكون قصده تحصيل اللذة بل ينوي كسر شدة الشبق الواقع فيه.

أفلا يُذكر التعدد كحل عملي واقعي لدفع إدمان تلك الذنوب ومعاصي الخلوات؟

بلى وربي هو حل عملي آخر لتلك المشكلة شاء من شاء وأبى من أبى من استطاعه ووجد في نفسه تحقق شروطه وضوابطه وأن ذلك قد يكون طريقا لتعففه = فليفعل ومن لم يستطعه فعليه بالصوم كما هو عموم النص الأشهر.

«مَن استطاع منكم الباءةَ فلْيتزوَّجْ فإنَّه أغضُّ للبصرِ وأحصَنُ للفَرْجِ ومَن لم يستطِعْ منكم الباءةَ فلْيصُمْ فإنَّه له وجاءٌ».

٨. استعصم

حين أُغلق الباب كان الستر قد أحكم وصار السر في بئر سحيق لقد تهيأت المرأة وأعدت المكان بإحكام ولم تعد هناك مخاطرة.

كل أسباب المعصية إذاً ميسرة.

هو شاب قوي فتيٌّ جميل المحيا بل مبهر .

وهو كذلك غريب لا يعرفه أحد ولا أهل له في ذلك البلد.

وهو إلى جوار ذلك كله أسير منزوع الحرية ليس عليه ما على الحر من العقوبة.

والفرصة سانحة.

والأبواب مغلَّقة بإحكام.

والمرأة متهيأة متزينة.

بل ومُراودة تغريه.

ثم متوعدة مرهبة إذا لم يفعل.

وهي ذات منصب وجمال فالحماية مكفولة والإيذاء ممكن.

والزوج ديوث سيقول حين يعرف فحشها: أعرض عن هذا.

فقط أعرض!

إن رائحة الفساد تنتشر في القصر وتدني سلوكيات أصحابه فاق الوصف.

ثم كانت كلمته الفاصلة.

﴿ **مَعَاذَ اللّٰهِ** ﴾

[**يوسف: ٢٣**].

فلترفعنا تلك الكلمة إلى أعلى عليين لتنقذ نفوسنا المتعبة المشمئزة من قذارة المكان وريح الشهوة التي قد زكمت أنوفنا.

فلتستعلي بنا تلك العبارة القصيرة عن دنائة المشهد المحاط ببواعث الشهوة المحرمة.

معاذ اللّه..

هو يذكر اللّه في تلك الظروف.

يستعصم كما وصفته المرأة بعد ذلك.

يتحصن بجوار عزيز ليحتمي من وهج الشهوة وبريق المعصية.

إنه الوازع الديني يطيش تلك القاذورات ويبعدها عنه .

ثم يتبعه الوازع الأخلاقي والرقي السلوكي المتمثل في قوله:

﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

[يوسف: ٢٣].

أفأخون من أحسن إلي؟

أفأطعن من أكرمني في عرضه؟

هيهات هيهات.

ما كان هذا بكريم الخلق وما كان هذا له بخلق.

إنه مثال للوفاء ورمز التعفف والنقاء.

إنه يوسف عليه السلام.

لو تناولنا موقف يوسف عليه السلام كنموذج للصمود أمام معصية السر سنجد محورين رئيسين سلكهما نبي اللّه الكريم بن الأكرمين وفي هذين المحورين مزيد من الأسباب العملية التي تفيدنا في مبحثنا حول مواجهة معاصي السر وذنوب الخلوات.

المحور الأول يتمثل في الاستغاثة.

التعوذ والتحصن.

اللجوء إلى اللّه والاستعصام به.

هذا هو أول ما فعله يوسف.

تستطيع إجمال ذلك كله في كلمة واحدة تمثل مرادفا للعبودية.

كلمة الدعاء.

في لحظة ما قد لا يتبقى لك إلا الدعاء وما أعظمه لو تدري.

ذكرنا أنه رغم توفر كل أسباب وعوامل ترك المعصية = فقد يقع الإنسان فيها وضربنا مثلا بنبي الله آدم عليه السلام .

إذا فالأسباب العملية لا تكفي وحدها.

لابد من الاعتماد على قوة أخرى وحول آخر لا قوة ولا حول دونهما إنه حول الله وقوته.

أن ينخلع المرء من كل حول وقوة وأن يستغيث ويلجأ إلى القوي العزيز.

هذا هو أول ما فعله يوسف وصرح به إجمالا وتفصيلا.

إجمالا من خلال صيحته الأولى: ﴿ **مَعَاذَ اللّٰهِ** ﴾

[**يوسف: ٢٣**].

وتفصيلا حين قال بعد مراودة نساء المدينة له وتهديد امرأة العزيز له بالسجن

﴿ **رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** ﴾

[**يوسف: ٣٣**].

أن يتمنى المرء ألا يعصى الله فذاك حسن.

وأن يبغض المعصية وينفر قلبه منها فذاك أحسن.

وأن يتحمل الأذى ويصبر عليه لئلا يقع في الفاحشة فتلك درجة رفيعة ومقام عظيم.

لكن أن يصل به تعظيمه لحرمات مولاه إلى أن يكون الأذى والعذاب الدنيوي أحب إلى قلبه من المعصية فهذا مقام من تشرب قلبه بمعرفة ربه.

معرفة أسفرت عن محبة صادقة وتعظيم خالص يجعله لا يطيق إغضابه والتعدى على حرماته.

معرفة جعلت أي مكان لا يعصي فيه الله أهون عليه من محل المعصية ولو كان قعر سجن بارد مظلم.

ورغم هذا الكره للمعصية فإنه يقر أن الله هو من بيده عصمته منها

﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

[يوسف: ٣٣].

بهذا الانكسار التام والانخلاع من الحول والقوة دعا يوسف فكانت النجاة وصرف المعصية عنه.

لقد استعصم.

فعُصم .

ورأى برهان ربه فصرف عنه السوء والفحشاء.

﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

[يوسف: ٢٤].

إن للدعاء مقام مهم للغاية في لحظات الضعف.

ومن أخطر تلك اللحظات الخلوة.

حين تنقطع أنظار الخلق وتسهل المعصية.

ساعتها قد لا ينجيك إلا استغاثة بالله ودعوة صادقة مخلصة.

لقد كان من دعاء الرسول ﷺ: «**وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة**» (صحيح الجامع:١٣٠١).

هذا في الأصل والبداية.

أن تدعوه ليرزقك خشية بالغيب.

فإن اقترفت الذنب وكان ما كان = فثمة دعاء آخر

يعلّمك رسول الله ﷺ أن تقوله في سجودك: «**اللهم اغفِر لي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وجِلَّه، وأوّلَهُ وآخِرَه، وعلانيته وسِرَّه**» (صحيح مسلم:٤٨٣).

الدعاء إذاً ينبغي أن يكون حاضرا بقوة إذا أراد المرء وقاية من معصية السر أو علاجا لها إن وقعت.

لكن يوسف عليه السلام لم يكتف بذلك وهذا هو المحور الثاني الذي تلخصه كلمة

﴿وَاسْتَبَقَا﴾

[**يوسف: ٢٥**].

لقد تحرك يوسف.

فرَّ من المعصية.

فارق تلك الخلوة.

لم يترك نفسه لمحل الفتن.

هناك أسباب إذا ينبغي احترامها جنبا إلى جنب مع الدعاء = لابد من عمل

إن حركة يوسف عليه السلام لم تكن ضعيفة ولا واهنة.

لقد اضطرت امرأة العزيز أن تتشبث به بعنف أدى لتمزق قميصه من الخلف.

لقد كانت على إثره إذاً أما هو هو فكان له السبق.

كان منطلقا لا يلتفت ولا يهن أمام داع المعصية.

وحين لقي الزوج على الباب لم يسكت ولم يخف ولم ينكسر لتهديدها وادعائها بل تكلم وصدع بالحق ﴿ **هي راودتني عن نفسي** ﴾

[**يوسف: ٣٣**].

عندئذ كان العون وشهد الشاهد من أهلها وعرف الخلق أنه كان في المقدمة.

عرفوا أنه بريء وهي المذنبة.

لم تكن النجاة فقط من الذنب بل كانت من الفضيحة والرمي بالباطل.

وكل ذلك لأن السبق كان له ولأنه تحرك ولم يكتف بالدعاء ولكن سعى وبذل.

من هـذا يتضـح التـوازن الـذي نتحـدث عنـه واالذي ينبغـي وجـوده لـدى طالـب التعفـف ومريـد النجـاة مـن وطـأة الذنـب .

الدعاء مع العمل.

الاستغاثة مع البذل.

التوكل مع السبق.

بذلك نجا يوسف عليه السلام.

وبذلك ننجو..

حين ندعوه.

ونستعصم..

٩. لأنه الأعظم

كل ما سبق من الوسائل العملية والقلبية التي تحدثنا عنها = لا أظن أن أحدا سيتعب نفسه ويتكلف تجشمها من دون ترسخ الأصل الذي تتفرع منه الدوافع والإرادة والعزيمة لسلوك أي سبيل إصلاح وتوبة.

ذلك الأصل هو تعظيم الله.

أن يعلو مقام الله في القلب .

أن يكون ذلك القلب متطلعا إلى السماء مستشعرا السمع الأعظم والبصر الأعظم والرقابة الأعظم والأشمل والأعم والإحاطة والعلم واللطف والخبرة التي ليس كمثلها شيء.

أن يكون كل ذلك له وحده.

لله..

هنالك توجد التقوى في القلوب وتعظم الشعائر والحرمات ويبرز الحياء من الله ليسود النفس ويصبغها .

قال الإمام محمد بن نصر: «**إذا ثبت تعظيم الله في قلب العبد أورثه الحياء من الله والهيبة له، فغلب على قلبه ذكر اطلاع الله العظيم ونظره بعظمته وجلاله إلى ما في قلبه وجوارحه. وذَكَر المقام غدا بين يديه. وسؤاله إياه عن جميع أعمال قلبه وجوارحه. وذكر دوام إحسانه إليه. وقلة الشكر منه لربه. فإذا غلب ذكر هذه الأُمور على قلبه هاج منه الحياء من الله، فاستحى من الله أن يطلع على قلبه وهو معتقد لشيء مما يكره، أو على جارحة من جوارحه يتحرك بما يكره، فطهَّر قلبه من كل معصية، ومنع جوارحه من جميع معاصيه**».

هذه كلمات تلخص هذا الأصل.

أصل التعظيم.

وعليه ينبني معنى التضحية والترك.

المعنى الذى لا يستقر إلا فى قلب المعظم لله تعالى.

حين يستقر فيه أنه لا شيء و لا شخص و لا محبوب و لا مرغوب و لا مرجو أعظم فى قلبى من الله و أننى على استعداد لأن أضحى بكل شيء فى سبيل رضاه.

التضحية هي فى الحقيقة نتيجة و ليست أصلا .

الأصل هو التعظيم

حين يوجد التعظيم في القلب يسهل ترك أي شيء دون المُعظَم و تأتى التضحيات و تظهر البطولات و تتحدد الاختيارات .

فالتضحية قرينة التعظيم .

ما من مضح يضحى ولا تارك يترك ما يحب أو يشتهي إلا إن كان معظما لما يضحى لأجله فتهون بالمقارنة قيمة أى شيء يضحى به حتى لو كان ولده...

حين هبَّ نبى الله إبراهيم عليه السلام من نومته كانت الرؤيا قد ثبتت و استقر الوحي و رؤى الأنبياء حق .

لقد صدر الأمر بالتضحية و جاء موعد البلاء المبين.

بعد كل البلاءات المتتابعة التي مر بها إبراهيم من جفوة الأهل و إلقائهم إياه فى برد الجحيم و ارتحال فى البلدان أليم و مراودة لزوجه من أفاك أثيم و تركه لذريته فى واد غير ذى زرع عن الماء عقيم.

بعد كل ذلك يأتى البلاء المبين و تكون وولدك عند حسن الظن يا إبراهيم.

لقد أقدم الخليل على تلك التضحية التى لا توصف وقال الكلمات لولده الذى طالما انتظره وها هو قد بلغ معه السعى واشتد عوده و آن الوقت ليكون له سندا و عونا فإذا به يؤمر بذبحه.

ترى كيف كانت مشاعره فى تلك اللحظات و هو يتفرس فى ملامحه وينظر إلى قسمات وجهه الذي طالما اشتاق إليه ؟!

كيف كان حال قلبه المتدفق بمشاعر الأبوة الحانية و هو يردد على مسامعه

﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾

[الصافات: ١٠٢].

فقال الولد الصالح الذى ورث عن أبيه الخليل أدبه مع الرب الجليل

﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

[الصافات: ١٠٢].

هو أيضا اختار التضحية وقدم مراد الله على روحه ونفسه.

فلما أسلما و خضعا و استسلما و رقد الغلام على وجهه و صار للأرض الجبين و لامس العنق السكين رفع البلاء المبين و جاء الفداء من الرحيم الكريم وقال

﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾

[الصافات: ١٠٧].

هذا المشهد الذى يحمل أسرارا عميقة و مشاعر يعجز القلم عن وصفها تلخصه كلمة واحدة.

التضحية

تضحية ربما لم يعرف العالم مثلها قد يجوع المرء ليشبع ولده و يتحمل البرد ليدفىء ابنه و قد يحرم نفسه من اللذة و المتاع ليهنأ فلذة كبده.

أما والد يقدم على ذبح ولده امتثالا لأمر مولاه و دون لحظة تردد !!

إن هذا لشىء عجاب

و بيده هو و ليس بيد أحد غيره و رغم ذلك يقبل و يقبل الولد و كأنما يقولان للعالم بلسان الحال : لا نقدم شيئا على تعظيمنا لله لا شىء يقف بيننا و بين مراد الله.

لن يعطلنا عن إرضائه و امتثال أمره شيء و لو كان أقرب الناس إلى قلوبنا و فلذات أكبادنا.

هذا المعنى وتلك القيم لا تستقر إلا فى قلب المعظم.

شيء يدعو للعجب بلا شك.

لكن الحقيقة أن هذا كان حال المضحين دوما.

مثار استعجاب و دهشة لمن لم يدرك هذه القيمة .

قيمة التعظيم.

فما أقدم إبراهيم على تضحيته بولده التي أشرنا إليها إلا لأن مقام الله كان فى قلبه أعظم.

و ما ضحى يوسف بحريته و مكانته و أعلن أن السجن أحب إليه إلا لأن خشية الله فى قلبه أكبر.

و ما جاد صهيب الرومى بماله كله أثناء هجرته إلا لأنه حبه لله و رغبته فى رضاه كانت أظه.

و ما كان خبيب يبالى حين يقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعه إلا لأنه معظم لربه.

و ما قال سعد بن أبي وقاص لأمه حين حاولت فتنته عن دين ربه بقتل نفسها : لو أن لك مائة نفس خرجت كلها نفسا نفسا ما تركت دينى فكلى إن شئت أو لا تأكلى . إلا لأن حبه لله أكبر.

و ما أقدم عبد الله بن عبد الله بن سلول على قتل أبيه رأس النفاق حين سب نبيه صلى الله عليه و سلم إلا لأن إرضاء الله كان فى نفسه أهم

و ما قام حنظلة غسيل الملائكة ملبيا نداء المنادى يا خيل الله اركبى و مضحيا بليلة عرسه ثم بعد قليل مضحيا بنفسه إلا لأنه أحب الله أكثر و عظمه أكثر.

و كذلك كان حال كل شهيد صادق و كل منفق مخلص و كل مضح محتسب التعظيم بل حتى ذلك العاصي الذي قرر بصدق التضحية بالمعصية والتوبة.

تأمل مشهد المرأة الغامدية حين أثنى عليها النبي ﷺ قائلا : لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له و لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم . وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى ؟ «

تأمل مرة أخرى قول حبيبك جادت بنفسها .

أى ضحت.

و ما ضحت إلا لأنها عظمت الله فعظمت حرماته

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾

[الحج: ٣٠].

و هل استعر الندم فى قلبها طوال أشهر الحمل و الرضاع دون أن تخفت إلا لهذا التعظيم؟!

من هنا تتضح أهمية السعي لترسيخ ذلك الأصل.

أصل التعظيم

ولأن التضحية قرينة التعظيم وفرع منه كانت العبادات التي تحوي تضحية = أعظم العبادات لأنها أوضح الأدلة على وجود هذا التعظيم.

فأفضل الصدقة جهد المقل لما فيها من تضحية ذلك المقل بمال هو أصلا قليل لكن قلته لم تمنعه عن إنفاقه لأن مقام الله فى نفسه أعظم.

و أفضل الرقاب التى تعتق هى أغلاها و أنفسها عند أهلها.

و هكذا تجد الأمر مطردا.

والجهاد ذورة سنام الدين وهو جهد النفس و المال و لقيام الرجل فى الصف فى سبيل الله أعظم من قيام ستين سنة و ما وجد النبى ﷺ عملا يعدل الجهاد فى سبيل الله .

والشهادة — تلك المنزلة العظيمة — ما نالها صاحبها إلا لأنه اختار أن يضحى بنفسه فى سبيل الله و ذلك من تمام التعظيم و أفضل الشهداء الذين يقاتلون في الصف الأول فلا

يلفتون وجوههم حتى يقتلوا ، أولئك يتلبطون في الغرف العلى من الجنة ، يضحك إليهم ربك ، فإذا ضحك ربك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه كما ورد بسند صحيح.

وسيد الشهداء رجل قام إلى إمام جائر ينهاه عن منكره وظلمه ويصدع بكلمة الحق في وجهه حيث يغلب على ظنه أن الجائر الظالم لن يتقبل أمره بمعروف أو نهيه عن منكر مضحيا في تلك اللحظات بأمنه ونفسه حين يقتله هذا الجائر.

و أفضل الصلاة بعد المكتوبة تلك التى فى جوف الليل لما فيها من تضحية بنوم هانىء و فراش وثير دافىء تعظيما لم يقوم القائم لأجله.

بل حتى ذلك اليوم الذي عُرف بالتضحية ونحر القرابين لله رب العالمين استنانا بهدي نبي إبراهيم = سماه النبي اليوم الأعظم.

«أعظم يوم عند الله يوم النحر»

كلما زادت التضحية دل ذلك على زيادة التعظيم فى القلب ومن ثم كان التفضيل.

ولأجل ترسيخ معنى التعظيم في القلب شرع الله هذا القدر من التكبير في حياتنا.

يكاد التكبير يحيط بكل عباداتنا وأحوالنا.

في العيدين شرع التكبير.

وفي الصلاة تكبير من أولها إلى منتهاها بل من قبلها في الأذان ثم الإقامة ثم تكبيرة الإحرام ومرورا بأركانها وشعائرها وركوعها وسجودها وحتى انتهائها بل وبعد انتهائها في أذكار ما بعد الصلاة.

وكذلك في الصيام قال الله:

﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

[**البقرة: ١٨٥**].

وأيضا في الحج والنسك يقول الله:

﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[**الحج: ٣٧**].

وعند لقاء العدو ومناجزته أيضا كان التكبير.

وعند السفر شرع لنا أن نكبر اللّه في دعاء السفر.

وعند ارتقاء مرتقىً شرع التكبير أيضا.

وعند النوم يسن التكبير.

وعند الذبح يكبر المسلم.

وعند الاستسقاء يصلي الناس ويكبرون.

وفي فرحهم يكبرون كما ثبت من فعل الصحابة رضي اللّه عنهم.

وأيضا في الحزن وعند مفارقة الأحبة نكبر عليهم أربعا في الجنازة.

وغيرها من مواطن أحاط اللّه حياتنا وعبادتنا فيها بالتكبير.

هل تأملت من قبل مغزى ومقصد كون التكبير أكثر الأذكار الواجبة على المسلم كمًّا وأعمها وأشملها على سائر لحظات يومه وعباداته؟!

لن يدرك الإجابة إلا من تدبر معنى التكبير.

اللّه أكبر..

هذه الجملة القصيرة ذات المفضول المحذوف هي من أبلغ ما قالته العرب فى التعظيم

هذا المفضول المحذوف تقديره = كل شيء

وأي شيء.

أكبر من ماذا؟

أكبر من كل مخاوفك و مرهوباتك.

من كل مرجواتك و محبوباتك.

من همومك و انشغالاتكز

من كل ما يمنعك عنه أو يعطلك عن سبيله.

هو معنى أراد الله أن يعم حياتك وأن يشمل أوقاتك وأن يترسخ في قلبك في حلٍ وترحالك وفي فرحك وأحزانك.

أن تتذكر أنه مهما كبر عليك شىء من أمر الدنيا أو عظم عليك شأن من شؤونها.

فالله أعظم.

لكن للأسف هناك من لا يجاوز التكبير لسانه و لا يلامس التعظيم قلبه

لا أريد أن أفصل في نماذج ومواقف تدلل على خلو الذكر من معناه وكونه لدى البعض مجرد ألفاظ لا يعون معناها ولوازمها فأظن أن تلك الأمثلة أشهر وأكثر من أن تحصى لكن يكفي أن أذكر بحقيقة واحدة.

إن لتعظيم الله دلائل وعلامات و ليست مجرد ادعاءات.

وعلى المعظم حقا والمكبر صدقا أن يعي كون تعظيمه لربه= لابد أن يكون مقترنا بتعظيمه لشرعه و أمره و نهيه.

﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾

[الحج: ٣٢].

أن يكون مقترنا بالاستعداد لتفضيل مرضاته على كل شىء والتضحية لنيل ذلك بأي شىء ليس شرطا لتظهر تعظيمك أن تهاجر أو تتكلف تضحية بولد كفعل سيدنا إبراهيم.

وليس شرطا لتظهر تعظيمك أن تهاجر أو أن تقتل أو تضحى بنفسك أو بمنصبك أو بمالك إلا إذا تعين ذلك لكن مناط الأمر يكمن في تلك الكلمة التي أشرت إليها.

الاستعداد.

ثم المحاولة حين تبرز دواعيها.

ولذلك إرهاصات لابد أن تظهر أولا.

لابد أن يظهر تعظيم المرء لله و لشرعه و لحرماته و شعائره ابتداء حتى إذا حدث التعارض بين محبوب أو مرجو و بين رضوان الله والحق الذي يرضاه = قدم بلا تردد رضوان الله.

لكن كيف نعظم اللّه ذلك التعظيم المورث للخشية في السر كما العلن؟
كيف تسود القلب تلك المشاعر من تعظيم وعلو مقام وإجلال ورجاء وقار؟
هذا ما نتعرض له بإيجاز في الرسالة القادمة.

١٠. من عرف اغترف

إن لتعظيم الله طريق محدد وسبيل واضح لا يخطؤه مريد ولا يحيد عنه راغب.

إنه طريق المعرفة.

أن تعلم عن الله.

أن تكون به خبيرا.

أن تحصي أسماءه وصفاته وأن تتفكر في نعمه وآلائه وأن تنظر إلى آثار رحمته وتجليات قدرته.

من دون ذلك فأنَّى يكون التعظيم.

كَيف يعظِّم العَبْد من لَا يعرفهُ؟!

عندما تجيب هذا السؤال بصدق ستبصر الطريق.

وعندما تسلكه ستتذوق تلك اللذة.

لذة التعظيم النابع عن معرفة الله سبحانه وتعالى.

ليس ثمة صفة أو اسم أو فعل من أفعال الله لا يورث العلم بها أثرا على القلب من حب أو رغبة أو رهبة أو رجاء أو وجل.

وكل تلك المشاعر وغيرها يجمعها رباط واحد.

التعظيم

لكن هذا لن يكون بمعرفة سطحية أو محض علوم نظرية جافة جامدة.

إنها حياة كاملة متكاملة مع الله.

حياة ازدهرت بها واحات قلوب الصالحين وأينعت فيها ثمرات يقينهم ودنت عليها ظلال توكلهم فكانت تلك الأعاجيب وكان ربهم بهم حفيا وما كان أحدهم بدعائه شقيا.

وكذلك معرفة اللّه إذا خالطت بشاشتها القوب وعاينت بهجتها النفوس ولاطفت نسماتها الأرواح.

فمن عرف اللّه حق المعرفة وأحصى أسماءه وصفاته ومننه وألاءه وأحبه وامتلأت نفسه بتعظيمه وإجلاله فإن قلبه يفيض بتلك المعرفة والمحبة والتعظيم ليظهر ذلك بشكل أو بآخر على سلوكياته واختياراته ولينضح على تصرفاته وتفضيلاته .

ومن عرف ربه فإنه يتقلب فى حدائق الاطمئنان بذكره

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

[الرعد: ٢٨].

ويستظل بوارف أشجار التوكل عليه وهو يردد

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا﴾

[التوبة: ٥١].

وهو يتنعم بنسيم اليقين فيما عنده ويثق بـ**﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوفِي السَّمَاوَاتِ أَوفِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّهُ إِنَّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾**

[لقمان: ١٦].

وإنه على علمه هذا يخشاه **﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾**

[الأنفال: ٢].

ويوجل قلبه لذكره فهو ممن قيل فيهم **﴿ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾**

[طه: ٨٤].

لكنه ما إن يتذكر واسع فضله وجنات جوده وغيث إحسانه حتى يسارع إلى رحابه ويعجل إلى خلوة به مرددا قول الكليم عليه السلام **﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾**

[طه: ٨٤].

لكن تظل البداية أن يعرف.

ومن ذاق عرف.

ومن عرف اغترف.

ما من قربى ولا مقام من مقامات الدين إلا وينال كمالها بمعرفة الله والعلم بأسمائه وصفاته.

فمن عرف الرقيب الحسيب العليم الخبير حق المعرفة أدرك مقام الإحسان.

ومن علم معنى الجبار القهار العزيز ذى انتقام خافه ووجل من عقابه وخشي عذابه.

ومن تشرب قلبه معانى الرحمة والمودة لم يخل ذلك القلب من رجاء ومحبة وحسن ظن يتبعه حسن عمل.

ومن علم أنه يقبل التوبة عن عباده ويغفر السيئات آب وأناب وتاب إليه واستغفره مهما كان ذنبه و إسرافه على نفسه.

ومن سمع أنه قريب يجيب دعوة الداع وضراعة المضطر لم يعجز أن يرفع إليه يديه ويسأله من جوده وفضله ويطاب منه أن يعافيه وينجيه.

من عرف غناه افتقر إليه واستغنى به.

ومن علم بقوته اعتمد وتوكل عليه.

ومن ذكر جماله اشتاق للذة النظر إليه.

وهكذا تترسخ المشاعر في القلب كلما ترسخت المعرفة.

ولعل ذلك الدعاء الجامع للنبى ﷺ حين تعوذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته وبه منه يعد تجسيدا واقعيا لتلك الحالة من توحيد الوجهة بشكل مطلق وكأنى به صلوات ربي و سلامه عليه لا يرى فى الكون سوى معاملة معه وعلاقة به أورثت بالقلب واللسان كمال الالتجاء وصدق التعلق وتمام الرغبة والرهبة تلاها ذلكم الثناء المهيب « **لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»

إن معرفة الله إذا استقرت فى قلب عبد فإنها تهز -بل تزلزل- كل تصوراته الخاطئة ونظراته القاصرة فتسقط كافة أوثان النفس لتخر متهدمة على أنقاض سوء الظن والتعلق بالخلق.

وكما رجف المنبر برسول الله ﷺ حينما تحدث عن الملك حتى قالوا ليخرن به فإن قلب المؤمن وحياته وتصوراته ونظراته للأمور ترجف وتهتز وتنقلب رأسا على عقب حين يعرف الله حق المعرفة فيرى الأمور بقيمتها الحقيقية ويزن الدنيا وما عليها بميزان المعرفة .

معرفة الله

وهذا ما حدث حين عرف السحرة مولاهم الحق فتكشفت لهم تلك القيمة الحقيقية للأشياء وبدت لهم المعايير الصحيحة فما ترددوا فى الاختيار بين الدنيا وما عند الله وقالوا لمن هددهم

﴿ لَنْ نُؤْثِرك عَلَى مَا جَاءَنَا منْ الْبَيِّنَات وَالّذي فَطَرَنَا فَاقْض مَا أَنْتَ قَاضٍ إنّمَا تَقْضي هَذه الْحَيَاة الدُّنْيَا ﴾

[طه: ٧٢].

وهذه من أزكى ثمرات المعرفة وأشهى قطوف العلم بالله.

أن يستقيم الميزان وتبدوالدنيا بزينتها رخيصة إن وضعت فى مواجهة مع إرضاء الله وما عنده.

حينئذ يرتفع الشعار عاليا خفاقا نقيا رقراقا يردده العارفون : **﴿ وَاللّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾**

[طه: ٧٣].

و يُنظر عندها إلى كل تهديد و تخويف بمنطق **﴿لَا ضَيْرَ إِنّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾**

[الشعراء: ٥٠].

فما بالك بنظر العارف لمعصية أو شهوة مهما أخذت زخرفها وتزينت.

فإذا ضعف مرة بعد أخرى أمام تلك الشهوات وتسببت غفلته في سوء اختياره فاختار المعصية على الطاعة واستبدل الذنب بالقرب = فإنه رغم ذلك يحمل قلبا عرف ربه والقلب الذى تشرب العلم بالله ومعرفة أسمائه وصفاته ونعمه وآلائه لا يحتمل أن يمكث طويلا تحت وطأة المعاصى أو يطول عليه الأمد فى رجس الخطيئة فما أن يُذَكَّر بمولاه حتى يسارع للاستغفار والتوبة والأوبة إلى رحابه لأنه يعلم جيدا «أن الله هويقبل التوبة عن عباده » وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو فيكون ممن قال الله فيهم :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

[آل عمران: ١٣٥].

و لربما بلغ درجة أعلى من ذلك كما حدث مع يوسف عليه السلام إذ يقول

﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

[يوسف: ٣٣].

فحسن أن يتمنى المرء ألا يعصى الله.

وأن يبغض المعصية وينفر قلبه منها فذاك أحسن.

وأن يتحمل الأذى ويصبر عليه لئلا يقع فى الفاحشة فتلك درجة عالية رفيعة.

لكن أن يصل به تعظيمه لحرمات مولاه لأن يكون الأذى والعذاب الدنيوى أحب إلى قلبه من المعصية فهذا مقام من تشرب قلبه بمعرفة ربه.

معرفة أسفرت عن محبة صادقة وتعظيم خالص يجعله لا يطيق إغضابه والتعدى على حرماته .

معرفة جعلت أى مكان لا يعصى فيه الله أهون عليه من محل المعصية ولوكان البديل = قعر سجن بارد مظلم.

ببساطة.

لوعرفته حق المعرفة.

لأحببته فما فضلت شيئا على ما يحب.

ولامتلأت نفسك بخشيته وإجلاله وتعظيم أمره فما أطقت إغضابه وما تحملت موجبات سخطه.

ولتاق فؤادك إلى قربه والأنس بلقائه.

ولزهدت روحك فى كل شىء إلا قربه.

ولهان عليك كل شىء فى سبيل إرضائه.

فقط لو..... عرفته.

فكيف أعرفه؟

ابتداء ينبغي أن تقر بالأصل.

إن التعرف على الله مهمة حياة.

هذه من أهم القواعد التي ينبغي ترسيخها.

إنها قيمة سامية لا تنفك عما ذكر ربنا أنه علة الخلق.

العبودية

وتلك لا تصح بغير معرفة المعبود.

إن كل لحظة تنفقها من عمرك لتتعلم عن ربك ولتتعرف عليه بأسمائه وصفاته لهى لحظة غالية نفيسة لن تكون حياتك بعدها مثل حياتك قبلها.

وإن أعظم ما تتعرف به على ربك هو كلامه .

﴿ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾

[فاطر: ١٤].

هل جربت يوما أن تقرأ كتاب ربك بهذه النية وبذلك الهدف.

إن أعظم ما تتعرف به على الله عز وجل من خلال ما اختار أن يعرف به نفسه عبر وحيه المنزل.

ثم كلام عباده المقربين العارفين به عنه.

ثم كتابه المنظور من حولك والذى تتجلى فيه آثار قدرته ورحمته وسائر صفات الجلال والجمال والكمال التى يتصف بها .

ثم من خلال معاملته.

وتلك الأخيرة مختلفة حقا.

إنها العلاقة المباشرة بينك وبينه.

نجاتك وتفريج كرباتك.

شرح صدرك وتخفيف ألمك.

إجابة دعائك واختيار ما ينفعك.

لطفه معك وحكمته في دفع ما قد تريده ويضرك.

وعلى ذاك فقس كل معاملاته معك في سائر حياتك.

كل نعمه الظاهرة والباطنة التي حين تتذكرها وتتأملها تتعرف عليه تعرفا عمليا.

أما التعرف عليه من خلال كلامه عن نفسه في كتابه المنزل وأحاديثه القدسية فيظل السبيل الأصلي والمبدئي والأكثر ضبطا وإحكاما.

القرآن الكريم هو أعظم كتاب اعتقاد موجود بين أيدينا.

لا تكاد تخلو سورة أوآية فيه من ذكر لله أوحديث عن اسم من أسمائه أوصفة من صفاته ولا يوجد مخلوق يحيط علما بالله جل وعلا لذا فأعظم ما تستمد منه معرفتك هو كلامه عن نفسه.

وأيضا تتعرف عليه من خلال كلام نبيه ﷺ وأحاديثه الصحيحة التى يكلمك فيها عن الله جل شأنه ويثني عليه ويحمده ويقدسه.

وتستطيع أن تتعرف على الله كذلك من خلال كلام العلماء العارفين الذين أفنوا أعمارهم في التعرف على الله والتعلم عنه .

وأيضا من خلال التدبر في الكون والنظر في ملكوت السماوات والأرض والتأمل في آثار رحمة الله في الخلق حيث تستطيع أن ترى تجليات الصفات في هذا الكون السرمدي البديع.

المهم قبل كل ذلك أن تدرك المبدأ وتفهم ماهية المهمة.

أن تؤمن كما أشرف ابتداءً أن التعرف على الله مهمة حياة وليس فقط كتاب يقرأ أو مسألة تدرس .

إنها رحلة تحتاج إلى إرادة حقيقية وصادقة من المرء لكي يسلك سبيلها وينال تلك المعرفة.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : **أي شيء عرف من لم يعرف الله ورسله ، وأي حقيقة أدرك من فاتته هذه الحقيقة ، وأي علم أوعمل حصل لمن فاته العلم بالله والعمل بمرضاته ومعرفة الطريق الموصلة إليه ، وماله بعد الوصول إليه.**

وإن نقص هذا العلم بالله قد يورث سوء الظن به.

وفساد الظن به مهلك.

﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

[**فصلت: ٢٣**].

وإن أقواما لم يعرفوه حق المعرفة فظنوا به غير الحق ظن الجاهلية وما قدروه حق قدره ولا ارتجوا له وقارا فكان عاقبة أمرهم خسرانا فى الدنيا بأن شُغلوا بأنفسهم وحسبوا كل صيحة عليهم وفى الآخرة.

﴿ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾

[**فصلت: ٢٤**].

ويقول الإمام ابن القيم: **فالعلم بالله أصل كل علم ، وهوأصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته ، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وماتزكو به وتفلح ، فالعلم به سعادة العبد ، والجهل به أصل شقاوته.**

وأشد الجهالة هى الجهالة بمقام الله وهى إن وُجدت وُجد معها العصيان والاجتراء على الحرمات سرا وجهرا.

قد يعذر المسلم بجهله حكما خفي عنه أونقص علمه بحرمة حرام أومنكر منهى عنه

لكن الجهل بالمقام الإلهى أمر مختلف فعنه شرعت التوبة كما فى قوله تعالى

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾

[النساء: ١٧].

أهي جهالة بالحكم كما أشرنا؟

إن كانت كذلك فهي مما يشمله العفو الإلهي عن الخطأ والسهو والإكراه فما كان الله معذبا حتى يبعث من يقيم الحجج ويثبت العلم.

ليست جهالة الحكم إذاً.

هو جهل بمقام الملك ناشيء عن جهل به وقلة أو انعدام ما نتحدث عنه من المعرفة **معرفة الله.**

ولقد أمر الله بالتعجيل بالتوبة عن تلك الجهالة فى قوله

﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيما ﴾

[النساء: ١٧].

وتمام تلك التوبة يكون بإصلاح ذلك الجهل بالله عن طريق التعلم عنه وحسن معرفته عندئذ يعظم مقام الله فى القلب ويهون كل ما دونها.

حتى معاصي السر.

وذنوب الخلوات.

١١. فضيحة توم المتلصص

لم تكن مشادة عادية هذه المرة.

ولا كانت مجرد مناقشة حامية بين زوج وزوجته .

إن الليدي جوديفا لن تسكت اليوم على ظلم ليوفريك لشعبه ولن تقبل تلك الضرائب الباهظة التي يفرضها على سكان كوفنتري المدينة الإنجليزية التي كانت تحت قبضته بصفته موكلا من الملك كانوت الدنماركي الملقب بالعظيم والذي نجح في غزو انجلترا في تلك الفترة من مطلع القرن الحادي عشر الميلادي.

ورغم ما عرف عن الملك كانوت من حنكة سياسية استطاع بها أن يروض التمرد المستمر من الإنجليز وإقناعهم لفترة ليست بالقليلة أن من يحكمونهم هم إنجليز وليسوا غزاة = إلا أن حارسه على مدينة كوفنتري لم يكن في نفس حنكته.

لقد كان ليوفريك رجلا ظالما لا يعرف رحمة ولا تعتريه شفقة.

هو يصر باستمرار على فرض المزيد من الضرائب على شعب كوفنتري.

جوديفا زوجته رغم كونها كونتيسة من بيت عريق ومن مُلّاك الأراضي وأغنياءِ بلدتها كوفنتري إلا أنها كانت على الضد من أخلاقه.

عرفت بالرحمة والتواضع وكانت علاقتها وطيدة بشعب كوفنتري وكانوا يحبونها ويقدرونها و يعتبرونها واحدة منهم لشدة تواضعها وحرصها عليهم.

وكان ليوفريك مغتاظا من تلك العلاقة المتميزة بين زوجته ورعاياه.

لم تحتمل جوديفا هذه المرة كبره ولم تقبل بقراره الجائر الذي يقضي فرض ضرائب لا قِبَل للشعب المسكين بدفعها وبدا هذه المرة أن النقاش يحتدم لدرجة لا تحمد عقباها ولن ينتهي الأمر على خير .

- ألا ترحمهم ولو مرة؟

ألا تشفق على هؤلاء الفقراء الذين قصمت ضرائبك ظهورهم؟

عليك بالتراجع عن هذه الضرائب الباهظة وإلا...

- لا مانع لدي من تغيير رأيي والتراجع عن الضريبة لكن ثمة تضحية عليك أن تنفذيها أولا إن أردت ذلك.

بلهفة قالت المرأة: وما هي قلها بسرعة أنا مستعدة.

هنا كانت الإجابة الوضيعة وهذا الشرط المقزز الذي خرج من متشفيا فمه الديوث:

سيكون عليكِ أن تمشي عاريةً في شوارعِ كوفنتري على ظهر جواد يجوب بك المدينة كاملة!

عندئذ سأغيّرُ رأيي..

أي رجل هذا الذي يشترط على زوجه أن تتعرى وأن يخدش حياؤها وتهان بهذا الشكل؟

ربما كان يحاول تعجيزها ليستريح من إلحاحها فقال جملتَه هذه متيقّناً أنّها لن تُقدِمَ على هذه الخطوةِ نظراً لرزانتِها وخجلِها المعروف ووجاهتها الاجتماعية العريقة.

وربما كان يود امتهان كرامتها وتشويه صورتها الوقورة بين شعب كوفنتري الذي يقدرها فيزدريها العامة كما يزدرونه ويحتقرونه.

ولكنّ جوديفا أقدَمت على لم يتوقعه زوجها البغيض.

لقد قبلت الشرط المريع.

تقول بعض المرويات التاريخية أنها تسترت بشعرِها الطويل الذي ستر معظم جسدَها ولم يظهر منه إلا وجهُها وساقاها ، ثم امتطت الجواد وجابت شوارع كوفنتري.

الصدمة الأكبر كانت عندما علم ليوفريك أنّ كل أهل كوفنتري دخلوا منازلَهم قبل خروج جوديفا وأسدلوا الستائرَ ليتجنّبوا النظرَ إليها وإحراجَها تقديراً منهم لقرارها الذي أدركوا أنها فعلته لأجل مصلحتهم ولرفع العنت عنهم وهو الأمر الذي اضطر ليوفريك بعد ذلك أن ينفذ دوره في الاتفاق ويسقط الضرائب عن شعب كوفنتري.

وتقول روايات أخرى أنّ جوديفا أرسلت بعض حرّاسها عشية خروجها ذلك اليوم ليمروا على كل بيوت المدينة ويطلبوا منهم لزوم بيوتِهم في ساعة خروجها

ولقد لبّى الجميعُ مطلبَها.

الجميع إلا وغد واحد.

مواطن واحد لم يفعل.

شخص واحد خان.

رجل واحد لم يستطع كبح جماح فضوله ولم يقاوم إغراء اختلاس النظر للمرأة التي تساعده.

إنه توم.

توم المتلصص.

توم مختلس النظر.

ذلك هو الاسم الذي عرف به في المرويات التاريخية Peeping Tom.

خياط بسيط يكتوي هو الآخر كسائر أهل المدينة بسياط ليوفريك وضرائبه كما هو حال باقي جيرانه.

لكن الخسة كانت أكبر في نفسه من أي اعتبارات أخرى.

لقد اختلس النظر وأمعن ما استطاع لذلك سبيلا.

وظل هكذا يتلصص حتى لم يعد يستطيع التلصص.

بل لم يعد يستطيع مجرد الرؤية .

لقد عمي.

ذهب بصره الخائن بالكلية وكفت عيناه عن النظر.

أي نظر..

تقول القصة أنه قد عجلت له العقوبة الإلهية وكانت من جنس عمله وافتضح أمره بين الناس ليس فقط بشهوانيته التي لم يسيطر عليها.

ولكن أيضا بخسته.

هكذا تقول الرواية التي يرى بعض المؤرخين أنها مجرد أسطورة شعبية قائمة على شخصيات حقيقية خصوصا جوديفا التي كانت شخصية مذكورة كونها من النساء القليلات اللاتي امتلكن الأراضي في تلك الحقبة من التاريخ الإنجليزي.

والبعض يرى أنها قصة حقيقية وتم استغلالها بشكل موسع في جمعيات المرأة والأخويات النسوية رغم أن التركيز الأقدم لم يكن على جوديفا ولكن كان على رمزية الخسيس الذي خان وتلصص.

ومن الجدير بالذّكرِ أنّه قد تمّ نحتُ تمثالٍ خشبيٍّ للخياط توم المتلصص ووضعه في الشارع المؤدّي إلى سوق كوفنتري ليصبحَ أيقونةً للشهوانيةِ والخسة وعدم الاحترام ، وحالياً توجدُ نسخةٌ طبق الأصل عن التمثال أمام كاتدرائية كوفنتري.

لا تعنيني تفاصيل القصة ولا ما تم استغلالها لأجله من النسويات ولم أوردها لأجل بحث موقف جوديفا الذي قد يكون غير حقيقي برمته أصلا وهو ينتمي لملة أخرى وثقافة مختلفة لذا لا أناقش هنا تفاصيل اختيارها فقد يكون الأمر كله رمزيا بحتا كما يرى كثير من المؤرخين.

لكن ما يعنيني أنه سواء كانت القصة واقعية أم كانت أسطورة مفتعلة فثمة حقيقة مهمة الخيانة شيء حقير حقا.

حقير مستهجن في كل الثقافات.

حتى لو كانت تلك الخيانة = نظرة.

بل إن هذه النظرة الخائنة كانت هي ما مثل به ربنا جل وعلا لدقة علمه وشمول رقابته ومحاسبته.

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾

[غافر: ١٩]

أورد ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها.. فإذا فطنوا غض بصره عنها فإذا غفلوا لحظ.. فإذا فطنوا غض وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها رواه ابن أبي حاتم.

وروي عنه أيضا أنه قال: يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد وقتادة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى «وما تخفي الصدور» : يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا؟

هو يعلم إذاً تلك الاختلاسة السريعة.

تلك الذنوب التي لم يلحظها بشر.

وهو مع علمه قادر شديد العقاب.

ما الذي يمنع إذاً أن تعجل العقوبة؟

ما الذي يحول بين الواقع وبين ما حدث لتوم المتلصص.

أن تعجل العقوبة في الدنيا.

وأن تمزج بفضيحة.

أهذا معجز لله؟

حاشا وكلا..

صحيح هو حليم يمهل ويملي.

لكنه لا يهمل ولا ينسى.

وقد يعجل العقوبة في الدنيا قبل الآخرة

«فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»

[الزمر: ٢٦]

إن ما وقع في مشهد توم المختلس الذي قد يكون خيالا أو حقيقة = قد يحدث لأي منا.

حين يخون.

حين يستغل لحظات الضعف.

حين ينفذ من الثغرات وينتهز الزلات وينتهك الحرمات.

كم من حقير يستغل احتياج امرأة ليراودها.

وكم من أحقر يتستر بثياب الوقار ويتنكر بقناع التنسك وعباءة التقوى ليقضي وطره ممن تنخدع به وتأمن جانبه.

كم بيننا من توم متلصص لا يتورع عن نهش أي حرمة تبدو له مهما كانت دركات الخسة التي سيسقط فيها ليصل إلى مبتغاه.

يحتاج من ابتلي بتلك الوضاعة وأدمن الخيانة أن يضع نصب عينيه ذلك النموذج وأن يدرك أن ستر الله عليه قد ينتهي في لحظة وأن معاملته بحلم الله قد تتغير.

عندئذ قد يعاقب فورا في الدنيا قبل الآخرة.

وقد يوصم بعقوبته.

ثم يفتضح أمره ليصير في النهاية رمزا للاختلاس للتلصص.

وللخائنة.

خائنة الأعين..

هذا النوع من المخاوف يعد من الوسائل الجيدة لمواجهة ذنوب الخلوات لو أحسن المرء التعامل معه.

يتستر ويحسن الاستخفاء من الناس الآن ويستمتع بستر الله عليه حاليا لكن إلى متى؟

لا أحد يعلم.

لا أحد يستطيع أن يجزم بموعد انكشاف هذا الستر وانتهاء الإمهال.

أيحدث ذلك في الآخرة أم في أول محطاتها - لحظة الموت- أم يحدث هاهنا في الدنيا كما روي في قصة توم المتلصص.

لا أحد يستطيع الجزم.

هو سبحانه يمهل لكنه لا يهمل.

إن أمرك منكشف تماما لسمعه وبصره.

وأن يتحول الانكشاف إلى أن يكون لسمع وبصر الناس فهذا ممكن جدا وثمة من شاع خبر خطيئته بين الناس وانكشف ستره .

وأنت لا شك تعرف بعضهم.

بعض من تعرضوا لأحد أسوأ مخاوف الخلق.

الخوف من عقوبة عاجلة.

عقوبة بفضيحة.

١٢. الآخرة أكبر

انتظرنا صاحبنا طويلا ولم يأت.

لم يكن الجو صحوا في ذلك اليوم بل كان حارا خانقا وكنا ننتظره أنا وصديقي الجديد ذلك الشاب الملتحي الهادىء والذي تبدو السكينة والوقار على سمته.

كنت قد تعرفت عليه حديثا وكانت تلك أيام بداية تعرفي على ذلك الطريق.

طريق اصطلح على تسميته بالالتزام.

سمه ما شئت.

تدينا... تسننا... محاولة استقامة أيا كانت التسمية التي ترتاح إليها ولا تحمل تزكية.

المهم أني كنت حديث عهد بالتدين عموما وكنت أنتظر صديقنا الثالث الذي واعدنا ذلك اليوم ليصحبنا إلى مكتبة ضخمة تبيع الكتب الإسلامية لم يكن في ذلك الوقت في بلدتنا منذ ما يقارب العشرين سنة غير تلك المكتبة.

وكان صديقنا المنتظر أسبق منا وله باع في طلب العلم ولعله كان من أسباب سلوكي هذا الطريق حيث كان من أول من دعوني إليه.

لكنه مع فضله يظل صديق طفولة وزميل دراسة ولا يحق له أن يتركنا هكذا ننتظره في هذا الجو القائظ.

لما تجاوز الأمر حد المعقول وكاد ملل الانتظار أن يفتك بي.

فاغتبته..

ندت مني جمل غاضبة ذكرت فيها صديقي بما يكره.

«كيف يفعل بنا هذا؟ أين الذوق؟ يبدو أنه سهر أمس وأطال في النوم متجاهلا موعدنا»

ألمح ابتسامة على طرف شفتيك وأنت تهمس ساخرا: وأين الغيبة أنت لم تقل شيئا جارحا؟

ربما كان ذلك بمقاييسنا الآن = لا شيء.

ووقتها كذلك لم أنتبه أني قد اقترفت إثما أصلا.

هو مجرد استنكار عادي وأنا أصلا لازلت أتخلص بصعوبة من عاداتي القديمة التي لم أكن أراعي فيها حلا ولا حرمة.

لكن صديقي الجديد كان أكثر ورعا.

﴿ **إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ** ﴾

[**المرسلات: ٣٢**]

نعم؟

ماذا تقصد؟

سألت صديقي الجديد بدهشة ووقع كلماته لم يصل بعد لإدراكي

الحق أنها ليست كلماته.

هي كلمات الله.

كرر صديقي: ﴿ **إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ** ﴾

[**المرسلات: ٣٢**]

نعم نعم أعرف الآية .

حفظتها منذ أيام ضمن الجزء التاسع والعشرين.

لكن ما المقام هنا؟

لماذا تقول لي ذلك؟

بعد لحظات وحين كررها مبتسما للمرة الثالثة فهمت..

هو لا يتحدث كثيرا ولا يجيد الخطابة وربما لا يحسن ترتيب موعظة.

لكنه الآن يعظني.

يذكرني بالقرآن .

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾

[ق: ٤٥]

هكذا لخصت الآية الكريمة الأمر ببساطة ووضوح.

بالقرآن.

بكلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

كثيرًا ما يكون مفتاح شخصية الإنسان وسبيل تغييره - فقط - في التذكير بالقرآن

القرآن وحسب.

دون وسيط أو إضافة أو تكلف أو كثير من كلام البلغاء ونظم الفصحاء الذي ربما تكون له مواطن أخرى ولا أقلل منها ولا من أثرها.

لكنها لن ترقى أبدا لذلك العلاج الرباني.

القرآن

أن يقع القرآن على قلبك مباشرة وأن يلامس أسلوبه نفسك بدون مقدمات.

للأسف قليل من المربين والموجهين هم من يعنون بتوجيه قلوب وعقول الناس لتلك القيمة والحقيقة القرآنية فيجعلون كلام الله هو الأصل الذي تدور حوله عظاتهم وتذكراتهم ونصائحهم وتوجيهاتهم.

قليل منهم من ينتبه لضرورة ذلك ويدرك هذه الحقيقة البسيطة النقية ..

حقيقة كون الإنسان في لحظة ما يحتاج إلى أن يُخلَّى بينه وبين كلام ربه مباشرة ..

يخاطب قلبه ويمس فؤاده وتهفو إليه روحه.

تغيره أساليب القرآن وتؤثر فيه طرقه.

هذا ما فعله صاحبي جزاه الله خيرا.

لقد ذكرني بالقرآن.

ولقد كان بارعا فاختار طريقة قرآنية من أنجح الطرق في التغيير.

لقد اختار أن يستحضر مشهدا مهما يكثر ذكره في القرآن.

مشهدا أخرويا.

وهذه الطريقة القرآنية بالذات لها أثر مذهل في التعامل مع ضعف المرء أمام المعصية خصوصا تلك التي اعتادها وصارت شهوة ولذة لا يكاد يستطيع تركها.

في ذلك الموقف معي كانت الغيبة هي تلك الشهوة.

وفي مواقف أخرى قد تكون معاصٍ مختلفة.

لكن ذات الطريقة تتكرر في القرآن ترغيبا وترهيبا والعامل المشترك فيها هو إبراز الميزان الصحيح.

ميزان الدنيا والآخرة.

إن حب الشهوات وتزينها في أعين الناس مسألة عامة لا يخلو منها إنسان طبيعي بنص الآية التي لم تستثني

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾

[آل عمران: ١٤]

تأمل.. الناس.

لم يقل الله بعض الناس ولم يقل الناس إلا فئة كذا أو طائفة كذا.

بل الناس... هكذا عامة مطلقة .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾

[آل عمران: ١٤]

والشرع لم يأت مصادما لوجود هذه الشهوات من جذورها أو مانعا لوجودها بشكل مطلق خصوصا إن كانت حلالا كما في النماذج المذكورة في الآية في أصلها لا تحرم لكن الشرع جاء ضابطا لها ومعينا للإنسان على التحكم فيها وأداء حقها .

والأهم أن يضبط توصيفها وأن ينظر لها نظرة صحيحة ويعطيها قيمتها الحقيقية.

قيمة المتاع.

إن كل ذلك مجرد متاع.

﴿ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

[آل عمران: ١٤]

والمتاع هو ما يستعمله المرء لفترة مؤقتة ثم يزول الاستمتاع به بعد انقضاء هذه الفترة طالت أو قصرى.

هكذا كانت النظرة القرآنية لكل ذلك النعيم الدنيوي الزائل حتى لا ينجرف الإنسان إلى أن تكون تلك الشهوات غاية رجائه ومنتهى أمله وهدف حياته.

إنه مجرد متاع مؤقت

﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾

[آل عمران: ١٤]

هنا تتمة الميزان وكفته الراجحة.

استحضار المآب.

الآخرة.

النهاية التي بلا نهاية.

الخير الحقيقي و المتعة الخالصة التي ينبغي أن يعلق المرء قلبه بها.

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

هنا مشهد ترغيب بخلاف المشهد السابق والمشهدان يشتركان في المبدأ.

استدعاء الآخرة.

بذلك الميزان تنضبط النظرة ويصح التصور وتستقيم مسيرة الإنسان في ظلال تلك الشهوات والمتاع.

حين يدرك أن تلك الشهوة العاجلة خصوصا إن كانت محرمة ليست النهاية.

هناك آخرة.

وهي أكبر.

هي أعظم في كل شيء ومفضلة على الدنيا على كل حال.

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴾

[الضحى: ٤]

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ❖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾

[الأعلى: ١٦ – ١٧]

«وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ»

[القصص: ٦٠]

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

[النساء: ٧٧]

«وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ»

[الأنعام: ٣٢]

هذه بعض نماذج لآيات تفضيل الآخرة بشكل عام.

هي دوما خير.

وهي أبقى.

وثمة آيات أخرى تبين تفاصيل التفضيل والتعظيم الذي يكون دوما في صالح الآخرة إذا ما قورنت بالدنيا.

فنعيم الآخرة ودرجاتها أعظم وأبقى وثوابها وأجرها أكبر .

« انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا»

[الإسراء :٢١]

﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

[النحل: ٤١]

﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

[يوسف: ٥٧]

﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

[الزخرف: ٣٢]

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾

[طه: ١٣١]

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾

[مريم: ٧٦]

وكذلك عذاب الآخرة أكبر وأشد وأخزى

﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

[الزمر: ٢٦]

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾

[طه: ١٢٧]

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

[السجدة: ٢١]

﴿ إلا من تولى وكفر فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾

[الغاشية: ٢٤]

﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

[القلم: ٣٣]

﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾
[التوبة: ٨١]

كل هذه الآيات وغيرها تلخص هذه القيمة التي يعد ترسيخها حلا عمليا للمعاصي عموما ولذنوب الخلوات خصوصا.

قيمة تعظيم الدار الآخرة.

أن يستقيم لدينا والميزان وأن ندرك حقيقة التفاضل وأن تظهر القيمة الحقيقية للأشياء مهما تزينت وتجملت واقتربت وسهلت منالها.

ستظل مجرد متاع .

ومتاع الدنيا مهما كثر فهو قليل.

والآخرة خير .

وأبقى.

١٣. باب موارب

«طول ما الباب متوارب ممكن ييجي عليك الوقت وتدخل»

كانت هذه المقولة المستندة على رواية عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله؛ من أهم المقولات التي سمعتها في بداية حياتي.

الرواية تقول أن الإمام أحمد رأى بالمسجد رجلا مشهورا بالسرقة وقطع الطرق.

رآه الإمام أحمد يصر على التواجد بالمسجد من حين إلى آخر فتعجب لحاله وسأله عن ذلك فقال : يا إمام ، بيني وبين الله أبواب كثيرة مغلقة فأحببت أن أترك بيني وبينه باباً مواربا.....

لم تكد تمر أشهر معدودات حتى لقيه الإمام أحمد متعلقا بأستار الكعبة متضرعا نادما تائبا عن خطاياه منيبا إلى مولاه..

قيل أن الرجل حسنت توبته بعد ذلك ولم يعد إلى ما كان عليه حتى مماته!

ترك بابا مواربا ففتح الله له به كل الأبواب.

سواء صحت تلك الرواية أو كانت من كلام الوعاظ والقصاصين = فإنها تلخص قاعدة من أهم القواعد التي ينبغي للمؤمن أن يتبعها مع نفسه الأمارة بالسوء وأن يتبعها المربون والداعون إلى الله في التعامل مع نفوس الآخرين إذا هم أخطأوا أو قصروا أو حتى أداروا ظهورهم وابتعدوا.

خصوصا مع #معصية_السر.

الفكرة باختصار هي أن تترك حبلا ممدودا بينك وبين سبيل الاستقامة وطريق الصلاح وألا تغلق الباب ولا توصده في وجوه الناس عساهم يوما يدفعوه وتتحول الفتحة اليسيرة أو المواربة إلى انفراجة وفتح وعظيم يعود المرء من خلاله إلى رحاب مولاه.

ربما يبدو للبعض أن وجود هذا الباب الموارب وهذا الحبل الممدود للصلاح يعد نوعا من التناقض إذا ما اجتمع مع صنوف العصيان وألوان التقصير الأخرى.

وهو فعلا شيء من التناقض لكنه بالمقارنة ببديله = تناقض محمود.

البديل هو الانفلات الكامل والفجور المطلق أو خيار التمرغ في الوحل الذي أشرت إليه في منشور سابق!

أي منطق عقلي يقول أن مطلق الفجور والانفلات هو الخيار الأفضل فقط لأجل الهروب من وصف متوهم بالنفاق ؟!.

إن هذا الخلط بين العمل الصالح والعمل السيء ليس دائما نفاقا فللعمل الصالح بريقه الذي قد تحجبه طويلا طبقات الران وحواجز الشهوة والعصيان وضجيج الأهواء والشبهات لكن قد تأتي لحظة يسود مشهد القلب ذلك البريق.

هنا ينفتح الباب الموارب ويلج العبد تائبا.

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

[التوبة: ١٠٢]

هكذا حدثنا ربنا في كتابه عن هذا الصنف من الناس..

أولئك الذين يصرون على ترك الباب مواربا ويأبون الانغماس الكامل في المعاصي والأهواء وإن ضعفوا أمامها أحيانا فخلطوا شيئا من الذنوب والخطايا بما وفقوا له من طاعات وقربات..

تلك الطاعات والقربات التي كانت بمثابة الباب الذي يرجون الولوج منه يوما!

قد يكون هذا الباب الموارب صحبة صالحة يحرص عليها العاصي ولا ينبغي للصالح أبدا أن يصده عنها لعله يدخل من خلالها يوما ما..

وقد يكون هذا الباب الموارب طاعة يحرص عليها وإن صغرت في نظرك لكن لعلها ببركة صدقه تكون سببا في هدايته.

قد تكون صلاة صبح في جماعة عقب ليالٍ امتلأت بالغفلة والنسيان وربما العصيان.

لكن بإذن اللّه يوما ما ستنهاه تلك الصلاة التي حرص عليها ولم يغلق بابها.

وقد تكون صدقة سر وصنيعة معروف يواظب عليها لتقيه مصرع السوء أو بدعاء ذلك المسكين الذي أطعمه أو الفقير الذي أعانه فينال العاصي هداية ورشادا

المهم أن يبقى الباب مواربا..

وألا يتمكن الشيطان من إقناعك بإغلاقه إغلاقا تاما محكما وذلك عين ما يسعى إليه من خلال بث القنوط واليأس والشعور المقبض بأن خلطك للصالحات بالسيئات = نفاق!

الحل ببساطة أن تصر على تجاهل تلك الشبهة وألا تحقرن من المعروف شيئا فالحسنة ولادة وحسن الظن عبادة..

لا تقل لنفسك كيف تطيعين وأنت بين كل هذه المعاصي ولكن قل كيف تعصين وقد شرفك اللّه بهذه الطاعة.

قل لها قد بتُّ عاصيا وأصبحت صائما أتبع السيئة بالحسنة لعلها تمحوها فإن الحسنات يذهبن السيئات.

لا تحقرن طاعة يسيرة صدرت من عاص بل شجعه عليها وشاركه فيها لعلها تسود ومن خلالها يعود وإياك أن تحقر من ضعف أمام شهوته فما أنت عن ذلك ببعيد ولا معصوم وبينما ينام البعض وابتسامة عجب عريضة ترتسم على وجوههم مستعلين بطاعتهم؛ قد ينام هو ودمعاته تنساب على وجهه ندما على ما فرط في جنب اللّه فتسبق به دمعته التائبة النادمة ويفرح ربه بأوبته الباكية.

وقد قيل: رب معصية أورثت ندما وانكسارا كانت أنفع لعبد من طاعة أورثت عجبا واستكبارا.

الخلاصة.. لا تغلق كل الأبواب ولا توصد كل مزلاج ولا تقطع كل الحبال ولا تدع أحدا يقطعها..

في طاعة اللّه = كن لحوحا مُصِرّا وأدمن الطرق..

وبإذن اللّه... سيفتح لك الباب .

خصوصا لو كان الباب... مواربا.

١٤. أمارة الصدق

لعل أفضل ما توارب به الباب ولا تتركه يوصد ليتعاظم الحاجز بينكم وبين طريق الخير = طاعة سر وقربى في خلوة.

إنها محل التفضيل في غالب الشرع وأكثر سياقاته.

تأمل...

رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله..

ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه..

ورجل ذكر اللّه خالياً ففاضت عيناه.

هؤلاء ثلاثة من السبعة الذين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله جل وعلا يظلهم بظله يوم لا ظل إلا ظله.

الثلاثة يشتركون في أمر واحد.

الثلاثة أصحاب سر مع الله.

أصحاب خلوة وطاعة مخفاة.

الأول كان يمكنه أن يتمتع بخلوة يتمناها كثير من الخلق.

خلوة مع امرأة وكثيرون يطمعون في خلوة مع ما هو أدنى من صورة أو موقع.

وهي هنا ليست أي امرأة.

إنها امرأة جميلة وهي صاحبة مكانة وجاه وقدرة مادية على نفعه إن أجابها أو إيذائه إذا صدها.

وهي البادئة الداعية الراغبة المهيئة لأسباب الفاحشة.

هي أشبه ما تكون بامرأة العزيز وهي قادرة بمنصبها على ما فعلته تلك الأخيرة بيوسف عليه السلام.

لكن الرجل تشبه بيوسف وحول تلك الخلوة إلى خلوة طاعة وخبيئة عمل صالح .

لقد كانت طاعته التعفف.

الخشية والتقوى .

لن يعلم أحد بتعففه ولن يدرك أحد ترفعه عن الحرام فهي غالبا لن تتكلم ولن تفضح نفسها.

لكن ربه يعلم سره ويرى عفته وصبره.

وهو سيظله يوم لا ظل إلا ظله.

والثاني كان يمكنه أن يستعلن بصدقته ويظهر طاعته وقربته وليس ذلك مذموما

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾

[البقرة: ٢٧١]

لكنه اختار السر.

﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

[البقرة: ٢٧١]

لقد اختار ما يطفيء غضب الرب كما صح عن نبينا ﷺ

قرر صاحبنا أن يخفي صدقته عن الخلق وألا يعلم بها إلا الخالق حتى إنه لشدة تحريه الاستخفاء كانت حركة يمناه غير ملحوظة ليسراه ولو أن لتلك الأخيرة عينين لما أبصرتا ما أنفقته يمينه!

فما بالك بباقي الخلق؟!

لقد اختار طاعة الخفاء وقربى السر وكانت له خبيئة يحرص على خمول ذكرها وبقائها في الظل.

فكان له الظل يوم لا ظل إلا ذلك الظل.

أما الثالث فما أعجب شأنه.

لماذا فاضت عيناه؟

ما الذي يجعل ذاكرا يبكي؟

أهي دموع شوق للقاء حبيبه وسيده ومولاه حين ذكره؟

أم هي قطرات رهبة وخشية وتعظيم مقام هيج مكامنها ذلك الذكر؟

وربما هي دموع وجل وندم حين تذكر تقصيره في حق مليكه.

أو هي دموع امتنان حين استحضر مع الذكر كمال النعم وانهمار المنن التي لم يوفها حقها من الشكر..

وقد تكون دموع فرح.

نعم... فرح بتلك الخلوة التي تاق إليها.

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

[يونس: ٥٨]

إن الخلوات أفراح المحبين وها هو سيخلو ويأنس بذكر مولاه.

قد يكون بكاؤه لأي سبب مما سبق أو لأجلها مجتمعة.

المهم أن قد فعل.

ولقد كان خاليا حين فاضت عيناه.

لعل تلك الخلوة هي ما أعانه على ذلك الصفاء الروحي وجمع النفس على الذكر فكان الأثر وانهمرت الدمعات وخشعت الأصوات وتلاشت الملهيات.

إنها الخلوة إذاً.

تلك التي ترتبط دوما بعبادات خاصة لها أفضلية لا تخطئها عين.

هذه حقيقة ينبغي تأملها وترسيخها.

عبادات الخلوة ليست كأي عبادات.

تلك القربات التي لا يعلمها إلا من تتوجه بها إليه قاصدا مرضاته وحده وليس للنفس فيها ولا للخلق أدنى نصيب = لها مقام مختلف .

تأمل مثلا فضل الصوم بإطلاق.

«كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»

هذا تخصيص واضح لعبادة الأصل أن المخلوقين لا يمكنهم الجزم بوجودها وعدمه.

يقول القرطبي: لما كانت الأعمال يدخلها الرياء والصوم لا يطلع عليه بمجرد فعله إلا اللّه فأضافه اللّه إلى نفسه .

ولهذا قال في الحديث : **(يدع شهوته من أجلي)** .

وقال ابن الجوزي: جميع العبادات تظهر بفعلها وقلّ أن يسلم ما يظهر من شوبٍ (يعني قد يخالطه شيء من الرياء) بخلاف الصوم.

لذلك كانت تلك الأفضلية الواضحة.

إنه للّه... نسبه لنفسه وشرفه بحفظ جزائه مخصوصا بعلمه.

كذلك صدقة السر مُيزت وفُضلت عن صدقة العلانية وفي كل خير.

مُيزت بما أوردناه في حديث السبعة الذين يظلهم اللّه ومنهم المتصدق سرا.

ومُيزت بتقرير النبي صلى اللّه عليه وسلم أنها تطفيء غضب الرب جل وعلا.

ومُيزت قبل ذلك كله بقول اللّه جل وعلا

﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

[**البقرة: ٢٧١**]

هاهنا إذاً تفضيل واضح وتفصيل لمثوبة وخيرية غير مذكورة في النوع الأول أو ما يبدى ويظهر من الصدقة.

وعن أفضل الصلاة بعد المكتوبة يجيب النبي ﷺ فيما يرويه عنه صاحبه أبو هريرة رضي اللّه عنه حين سئل عن ذلك فقال: **أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة ، الصلاة في جوف الليل** [رواه مسلم] .

وفي الحديث أيضا: [**أقرب ما يكون العبد من ربه في جوف الليل الآخر**] رواه الترمذي.

لذا روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «**لأن أصلي ركعة بالليل أحب إلي من أن أصلي عشرا بالنهار**».

إنه مقتضى التفضيل في قول الله تعالى:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾

[المزمل: ٦]

ولقد امتدح الله أصحاب صلاة الليل وأثابهم عليها من جنس عملهم حين قال سبحانه في سورة السجدة: **﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**

[السجدة: ١٦-١٧]

قال الحسن البصري ومجاهد وغيرهما هي صلاة الليل.

وفي الحديث الصحيح «**إنّ في الْجَنّة غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا منْ بُطُونهَا، وَبُطُونُهَا منْ ظُهُورهَا**» **فَقَامَ أَعْرَابيٌّ فقَالَ: لمَنْ هيَ يَا رَسُولَ اللّه؟ قَالَ: «لمَنْ أَطَابَ الْكَلامَ، وَأَطْعَمَ الطّعَامَ، وَأَدَامَ الصّيَامَ، وَصَلّى للّه باللّيْل وَالنّاسُ نيَامٌ»**

وفي سنن الترمذي عن بلال بن رباح رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**عليكم بقيام الليلِ فإنه دأبُ الصالحينَ قبلَكم وإنَّ قيامَ الليلِ قُربةٌ إلى اللهِ ومنهاةٌ عن الإثمِ وتكفيرٌ للسيئاتِ ومطردةٌ للداءِ عن الجسدِ**»

تأمل قوله «دأب الصالحين قبلكم»

هكذا كانوا.

هذه سنتهم وطريقتهم ودأبهم الذي أصروا عليه.

يخلون بليل مظلم يضيئونه بتلك القربى.

صلاة الليل

القيام.

لا أحد يراهم إلا من يقصدونه وهو القائل

﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ❖ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾

[الشعراء: ٢١٨-٢١٩]

وهم لا يكتفون في خلوتهم بالقيام بل يخلطونه بعبادة أخرى لا تحلو ولا تكتمل إلا بخفائها وعزلة صاحبها أثنائها.

إنه الذكر والدعاء الذي مُيز من خلا أثناءه بالظل يوم لا ظل إلا ظله.

إنهم يستغفرون بالأسحار.

في آخر الليل يطلبون من ربهم المغفرة.

وينادونه نداء خفيا كما فعل نبيه زكريا.

يجعلون ضراعتهم من طرف خفي ولا يعتدون وهم بذلك ينفذون أمر مولاهم

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

[الأعراف: ٥٥]

وهو القائل في السورة نفسها - الأعراف -**﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾**

[الأعراف: ٢٠٥]

هكذا يكون الذكر والدعاء المفضلين.

تضرعا وخفية.

سرا وخبيئة عمل.

إنها عبودية الأخفياء وأولئك أيضا تقرر تفضيلهم وإعلاء مقامهم في ديننا وإن أخفض الخلق ذلك المقام في الدنيا.

قال رسول الله -ﷺ-: «**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**»

عبد تقي لمولاه غني عمن سواه خفي إلا من سمع وبصر مولاه.

الناس لا يعلمون عنه شيئا وربما لا يأبهون به لكن ربه يعلمه.

ويحبه.

ويبر قسمه.

«كم من أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ له لو أَقْسَمَ على اللّهِ لأَبَرَّه»

هكذا بين مقامه رسول اللّهﷺ.

تدبر قوله لا يُؤْبَهُ له.

لا يعتنى به.

لا يوقره الخلق ولا يعظمه الناسز

في حديث شبيه أخبر رسول الله أن مثل هذا إن استأذن لم يؤذن له ، **وإن شفع لم يشفع**»

عبد خفي لا يعلم أحد أعماله.

لا يدرك أحد أنه قد يكون وصل لمقامه بأمانته أو ببره لوالديه أو بعفته أو بذكره لربه خاليا أو بقضاء الحوائج للضعفاء والمحتاجين .

بعبادة سر أو تضحية لا يعلم الناس عنها شيئا لكنه تنجي في ساعة حسم ولحظة احتياج في الدنيا في الآخرة.

الثلاثة الذين حبسوا في غار بعد أن هوت صخرة على مدخله فأغلقته؛ كانت لهم تلك الخبيئة وبدعائهم ربها متوسلين بتلك الخبايا = نجوا من هلكة مؤكدة.

أحدهم دعا ببره وتضحيته براحته لأجل والدين قد ناما ولا يعلمان شيئا عن تضحيته ووقوفه طوال الليل منتظرا استيقاظهما ليطعمهما قبل نفسه وأهله.

والآخر دعا بأمانته وإعادته حق أجير مضت على إجارته إياه سنين عددا ولو أنه قد أعاده كما كان لقبل الأجير ولما لامه أحد.

والثالث قام عن فاحشة كاد يمضيها وقدر عليها وهي أحب إليه ولم يكن أحد ليعلم وقوعه فيها إلا أنه تعفف واتقى.

كل كان يمكنه ألا يتقرب بتلك الطاعة أو أن يقع في المعصية دون أن يلام أو يفضح.

لكنهم أسروا خيرا وكانت لهم خبيئة أنجتهم.

إنه تفضيل آخر لعبادة السر وطاعات الخلوات.

النجاة من الكربات.

قال بعض الصالحين « **عبادة السر وطاعة الخفاء هي زينة العبد في خلوته، وزاده من دنياه لآخرته، بها تفرج الكربات، وتسموا الدرجات، وتكفر السيئات**».

لكن لماذا كل هذا؟

لماذا كل ذلك التفضيل والتقديم لعبادة السر؟

ببساطة لأن عبادة السر وطاعة الخفاء.. لا تخرج إلا من قلب كريم..

فلا يتقرب إلى الله في الخلوة إلا رجل يوقن أن الله يعلم سره ونجواه وما أعلنه و ما أخفاه وهذا يبلغ بالعبد مرتبة الإحسان .

أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

من هنا كانت القيمة وكان التفضيل.

العبادة في الخلوة مع عدم استشراف القلب ولا رغبته في ظهور أمره ومعرفة الناس بتفاصيل قرباته = أمارة ودليل وبيِّنة وعلامة.

أمارة صدق.

ودليل إخلاص.

وبيِّنة حرص.

وعلامة علم بالله جل وعلا.

قال بعض العلماء: «**العلم صلاةُ السرِّ، وعبادةُ القلب**».

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: «**من صلّى صلاة عند النّاس لا يُصلّي مثلها إذا خلا، فهي استهانة استهان بها ربّه**».

ولا يستهين بربه من عرفه وعلم صفاته وخبر نعمه وآلاءه وخشي غضبه وانتقامه.

إنما العلم الخشية.

لذا قال ابن مسعود أيضا: «كونوا ينابيع العلم ، مصابيح الهدى ، أحلاس البيوت ، سرج الليل ، جدد القلوب ، خلقان الثياب؛ تعرفون في السماء ، وتخفون على أهل الأرض».

أفلا نكون منهم؟!

من عباد السر الذين أثبتوا بالدليل الواضح والبيِّنة الجلية أنهم يريدون وجه الله سواء علم الخلق أم لم يعلموا.

أثبتوا ذلك حين أدركوا حقيقة تلك الكنوز التي نسترسل حولها في الفصل القادم والأخير كنوز الخلوات.

١٥. كنوز الخلوات

في جُل فصول هذا الكتاب أوضحنا بإسهاب كيف أن المغبونين يُحَوِّلون خلواتهم إلى محل لاستنزاف رصيد الحسنات والاستزادة من دنس الذنوب وتسويد الصحائف برجس السيئات.

في أثناء ذلك يصر فريق آخر مُوفق على استغلال تلك الخلوات وترجمتها إلى ما ينبغي لها أن تكونه.

إلى كنوز.

كنوز الخلوات.

إنها الاستثمار الصحيح لتلك الصفقة الرابحة التي غبن فيها عصاة السر أنفسهم قالَ مسلمُ بن يَسَار: ما تلذذ المُتَلذذون بمثل الخلوة بمُنَاجاة الله عزَّ وجلَّ.

وكان بعض الصّالحين يقول: كنتُ أخلُو لأسلمَ ، فصرتُ أخلُو لأغنَمَ ، فصرتُ أخلُو لأفهَمَ ، فصرتُ أخلو لأعلمَ ، ثم صرتُ أخلو... لأنعمَ!

إي وربي تلك نعمة جليلة ومنة عظيمة لمن أدركها.

أن تكون لك خبيئة عمل صالح لا يعلمها إلا من فعلتها لأجله مبتغيا مرضاته.

ما أعظمها من علامة إخلاص ودليل صدق.

لا أحد من المخلوقين يعلم.

لن تنال ثناء.

لن يحمدك الناس بما فعلت وبما هو جدير بمدحهم.

ولن يأتيك منهم جزاء ولا شكور.

ولن تسألهم شيئا من ذلك ولن تستشرفه.

إنك مُصِرٌّ على أن يكون عمل سر لا يجزيك به إلا من قصدته به.

جاءَ رجلٌ إلى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه فقال: يا أبا عبد الله إني أخشى أن أكون منافقًا ؟

قال: تصَلّي إذا خلوتَ ، وتستغفر إذا أذنبتَ.

قال: نعم.

قالَ: اذهب فما جعَلَكَ الله منافقًا.

لماذا جزم سيدنا حذيفة رضي الله عنه بذلك الارتباط بين نفي النفاق وصلاة الخلوة؟

ببساطة لأنه لا يوجد دافع.

منافق يزعم إيمانا ويبطن كفرا وها قد خلا.. ما دافعه ليعبد.

لم يعد أحد راه.

ولن يعرف أحد بصلاته.

فلماذا يصلي.

ولماذا يستغفر لذنب لا يعلمه إلا ربه؟

الإجابة ببساطة لأنه عرف ربه وعرفه أنه يعلم.

هو إذاً ليس منافقا.

ولو كان منافقا ما فعل لعدم وجود أي دافع يحثه على ذلك.

خبيئته دليل وجود إيمانه.

هو يعرف أن له ربا يعلم السر وأخفى ويبصر الذنب ويأخذ به.

ومن ثم يستغفره.

فأنَّى يكون منافقا؟

لذا كانت تلك دوما هي نصيحة المربين والصالحين امتدادا لنصيحة سيد المرسلين ﷺ

«من استطاعَ منكم أنْ يكونَ لَهُ خَبْءٌ مِنْ عمَلٍ صالِحٍ فلْيَفْعَلْ»

هذا ما استحبه لك نبيك ﷺ والحديث في صحيح الجامع.

لا يأمرك النبي بأن يكون ذلك هو حالك وحسب.

ولا يقطع الحديث أن الخبيئة هي المقصودة وحدها في سائر العبادات والطاعات؛ فإن ذلك إن حدث يصعِّب الاقتداء ويجعل القدوات دوما في حالة من الاختفاء وبالتالي لا يستطيع طالب التأسي أن يجد بغيته فيهم.

وفي الحديث «**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**». صححه الألباني في صحيح الترمذي.

لكن الفكرة أن الأمر الآخر ينبغي أن يكون موجودا في حياتك.

ألا تخلو منه عبادتك.

ألا تقتصر فقط على عبادات الجهر ولا يكن مبلغ طاعاتك ظاهرها وحسب.

لابد من خبيئة.

ولا مناص أحيانا عن عزلة.

قال الحسن البصري رحمه الله: **إن كان الرّجل لقد جمع القرآن وما يشعر به النّاس، وإن كان الرّجل لقد فقه الكثير وما يشعر به النّاس، وإن كان الرّجل ليصلّي الصّلاة الطّويلة في بيته وعنده الزَّوْر وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السّرّ فيكون علانية أبدا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدّعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلّا همسا بينهم وبين ربّهم وذلك أنّ اللّه تعالى يقول: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾[الأعراف: ٥٥]، وذلك أنّ اللّه ذكر عبدا صالحا رضي فعله فقال: ﴿ إِذْ نَادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا ﴾ [مريم: ٣].**

تأمل الكلمة...

خَفِيًّا!

لقد كان النداء خفيا.

هذا هو وصف القرآن لنداء زكريا عليه السلام.

رجل تقدم به العمر وضعفت عظامه ولم يدع الشيب في رأسه مكانا لسواد.

وفوق ذلك كله امرأته عاقر فلا تنجب.

لكن الأمل لم يهن في قلب الرجل وحسن الظن بمولاه لم يطله شيب رأسه.

لم تزل ثقته بربه فتيَّة ورغبته إلى سيده غضة عفيَّة.

الرجل لا يزال يبتغي الذرية ويطمح إلى أن يرزقه ربه غلاما زكيا.

تخيل أن مثل هذا الرجل جهر بندائه أمامك!

أوكنت تعذره؟

أوكنت تقدِّر حسن ظنه وصدق رغبته؟

أم تراك كنت متعجبا من مطلبه منكرا غرابة مقصده؟

عموما هو لم يجهر ولم يسمع صوته إلا من به أحسن به ظنه وإليه صدق عزمه وقصده وعليه كان توكله اعتماده.

ولقد ناداه هنالك..

في خلوته.

في محراب عبوديته.

في صومعة صلاته وتبتله ومحل إظهار خشوعه وخشيته.

هنالك دعا ونادى.

وهنالك أجيب النداء بنداء.

لكن النداء الثاني لم يك خفيا!

لقد نادته الملائكة وهو قائم يصلي وأظهر هذا النداء وخلده قرآن يتلى إلى يوم القيامة

لكن البداية كانت هنالك.

في محراب.

في خلوة.

وكانت الذكرى من قبلها عند شهود ثمرات خلوة أخرى في محراب آخر.

خلوة مريم ومحراب عبادتها.

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾

[آل عمران: ٣٧]

قيل أنه كان يجد لديها في ذلك المحراب فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف وقيل كان يجد لديها الرزق بغير سبب معلوم ولا يعرف طريقة وصوله إليها لذا كان يسألها: **﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا﴾**.

[آل عمران: ٣٧]

فترد بيقين: **﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**

[آل عمران: ٣٧]

لعل شدة يقينها ورسوخ حسن ظنها بربها وما رآه من ثمرة ذلك ذكراه والذكرى تنفع المؤمنين.

عندها يتعاظم الأمل في صدر الشيخ الهرم واهن العظم الذي اشتعل رأسه شيبا فنادي هنالك.

في نفس المكان الذي آوت إليه مريم واستقرت في ظلاله.

في المحراب.

من هناك يطلق زكريا عليه السلام نداءه الخفي: **﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾**

[آل عمران: ٣٨]

وكانت الإجابة في المحراب أيضا.

ذلك الذي لم تغادره مريم حتى بعد تمام اصطفائها وتكريمها وتطهيرها.

وهي مع هذا التكريم والاصطفاء لم تظن أن المقام الذي بلغته والاصطفاء الذي نالته = مبرر للتكاسل أو علة لترك العمل ومغادرة المحراب .

إن كل الآيات والكرامات والاصطفاءات والتفضيلات لم تكن إلا داعية للمزيد.

المزيد من الخلوة والتنسك.

لذلك استجابت مريم للأمر المترتب على الاصطفاء.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ❖ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾

[آل عمران: ٤٢-٤٣]

ولقد فعلت.

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾

[التحريم: ١٢]

كانت من القانتين.

وظلت كذلك.

ولتضرب مثالا ساطعا آخر يرسخ لحقيقة كون المكانة مرتبطة بالمكان وأن مقام المرء عند الله يعرف بما أقامه فيه الله.

ولقد أقامها الله في محراب عبادته.

وفيه كان الابتلاء الأخطر والاختبار الأعظم في حياتها.

- إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا.

بهذه الكلمات صاحت بينما تنزوى بعيدا ، متسترة بعفافها متسربلة بحيائها.

صاحت وهى التى كانت قد اعتزلت المخلوقين ولجأت لخلوتها المعتادة وانتبذت حتى من أهلها مكانا تخلو فيه بربها محتجبة منعزلة تأنس فقط بالقرب من مولاها العظيم الجليل.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۞ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾

[مريم: ١٦-١٧]

إنها الخلوة كالعادة .

عادة العباد والصالحين الذين يفهمون حقيقة هذا الكنز المنسي.

وهل كانت خلوة مريم بمستغربة وهي ابنة المرأة الصالحة التي من كلماتها يتعلم المحبون كيف تكون المناجاة في الخلوات.

لقد كانت مريم وكمالها وبركتها نذرا نذرته امرأة صالحة تقية خفية.

امرأة على وشك الوضع تناجي ربها وتكلمه وتدعوه وتنذر ما في بطنها قربى له.

﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي ﴾

[آل عمران: ٣٥]

لكن هذا النذر لم يكن مطلقا كما يبدو لأول وهلة.

لقد كانت لهذا النذر صفة أو إن شئت فقل: أمنية.

إنها الحرية.

هذا المولود المنذور سيكون مُحَرَّرًا.

محررا من كل شواغل الدنيا وعوائقها وعلائقها.

محررا من كل آصارها وأغلال شهواتها وقيود أهوائها.

هذا المولود سيكون خالصا له وحده.

ويمكنه أن يخلو به وحده.

هكذا أرادت المرأة الصالحة.

وهكذا كانت مريم.

حرية خالصة لا تتحقق إلا بكمال العبودية ويظهر ذلك الكمال هنالك.

في الخلوات.

وإن هذا لن يكون إلا بإذنه ولن يحدث إلا إذا تقبل.

﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّيۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

[آل عمران: ٣٥]

ثم تستمر المناجاة في خلوة امرأة عمران مع ربها.

حتى بعد الوضع.

﴿ إني وضعتها أنثى ﴾

[آل عمران: ٣٦]

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾

[آل عمران: ٣٦]

الله يعلم.

وهي تعلم أنه يعلم.

فلماذا قالتها إذا؟!

لماذا قالت: إني وضعتها أنثى.

إجابة ذلك السؤال لن يستشعرها إلا قلب محب تعود الخلوة وأحب كنوزها.

قلب تذوق لذة المناجاة وتشرب متعة الكلام معه.

مع حبيبه ومولاه.

إن من ذاق هذه اللذة سيفهم جيدا لماذا قالت أم مريم تلك العبارة التي لم تضف معلومة ولم تحتو على مطلب.

سيفهم أيضا لماذا فصَّل نبي الله موسى عليه السلام واستفاض في الإجابة حين سئل عما في يمينه فقال: ﴿ **قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى** ﴾

[طه: ١٨]

كان من الممكن أن يكتفي بأول كلمتين في الإجابة: هي عصاي.

لكنها المناجاة.

وكذلك المحبين حين يخلون بربهم.

يودون ألا تنتهي مناجاتهم مع حبيبهم وألا تنقضي تلك اللحظات التي يصلون ما بينهم وبينه.

بل يودون لو جعلوا لمحاريبهم وأماكن خلوتهم أسوارا لا يستطيع أحد المخلوقين تجاوزها ليعكر عليهم صفوها.

صفو الخلوة.

وإن محراب داوود يشهد بذلك.

لقد كان لداوود محرابه كعادة سائر العُبَّاد خصوصا عُبَّاد بني إسرائيل وأنبيائهم.

كان لزكريا محرابه الذي ذكرناه ابتداء.

المحراب الذي خرج منه على قومه فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا.

وكان لمريم محرابها الذي طالما دخل عليها زكريا فيه معاينا لكراماتها شاهدا على رزق الله لها.

وكان لجريج العابد محرابه وصومعته.

ولسليمان محاريبه التي طالما كلف الجن أن يصنعوها

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ ﴾

[سبأ: ١٣]

المحاريب إذن كانت دوما حاضرة بقوة كلما ورد ذكر أنبياء وعُبَّاد بني إسرائيل.

لكن محراب داوود كان مختلفا.

لقد كان محرابا ذا أسوار.

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾

[ص: ٢١]

حين أرادوا الوصول إلى داوود = تَسَوَّرُوه.

أي اعتلوا أسواره.

ولكن هل للمحاريب أسوار؟!

إنها أماكن عبادة وصلاة ، فما الداعى لتلك الأسوار؟

هل لأنه كان يريد أن يحرس خلوته ويصون ورده؟

أم هو حرص على لحظات أنسه؟

أو لعله تشبث بحق قلبه..

أم أنه أدعى لاستجماع مكامن الخشوع ، ومنابع الذكر والفكر والخضوع؟

إنها ليست إذاً مجرد أسوار..

إنها لَرعاية.

وإنها لعناية.

وإنها لحجر محجور ، وحجاب مستور ، بينه وبين منغصات الشعور ، وبواعث الفتور..

لعمرى كم يحتاج كل عابد للحظات مسوَّرة..

لسويعات خلوة مع الخالق لا يقطع صفوها مخلوق.

لأسوار من الحرص ، وسياج من العزم ، وساتر من الإخلاص والصدق ، تحوط محراب عبوديته..

ليس شرطا أن يكون محرابا كمحراب داوود ، أو محاريب ولده سليمان ، أو محراب مريم أو كفيلها زكريا عليهم السلام..

وربما لا تكون صومعة كصومعة جريج ، أو غيره من العباد والنساك..

لكنها لحظة خلوة.

همسة مناجاة.

جوهرة عبودية تحتاج إلى مثل هذا السور..

أي نبي الله... كم يغبطك على أسوار محرابك كل طالب أنس بمولاه طامح للحظات المناجاة وراغب في جواره الكريم!

لقد كان نبي الله داوود عابدا لا يشق له غبار في ذلك المضمار.

كانت عباداته ليست كأي عبادات وكان ناسكا متبتلا ليس كأي ناسك متبتل.

لقد كان له من العبودية ما يتفرد به عن غيره ويشكل في جنباته نسيجا وحده.

هذا السكون اللطيف الذي يغلف الكون في حياء نقي ، لا يعكر صفو نسيمه شيء ، ولا يخترق صمته إلا صوتا بديعا يتنامى من بعيد ، بزجل رائق ، يتعالى تدريجيا كلما اقتربت من مصدره..

يتعالى وتتردد أصداؤه في تلك المنطقة الجبلية التي تحدها عن اليمين والشمال سلاسل جبلية عالية ، تمتد على مرمى البصر..

لحظة!!

إن هذا الترداد ليس مجرد صدىً عادي لذاك الصوت البديع..

ليس هذا دأب الصدى المتكرر والمتقطع المتخافت تدريجيا كما نعرفه..

إنه صوت أعمق بكثير.

صوت يثير مكامن الشعور ، ويستجيش حسنه ، وتستدر معانيه أنهار العبرات من المآقى ، مهما بلغت قسوتها..

تري: ما أنت أيها الصوت البديع؟!

من أين تأتى أنغامك التي تشبه العزف لكن من دون معازف؟!

هذه الحالة الكونية التي تكاد ترى الجبال المحيطة بالمدينة تتمايل لرقتها وعذوبتها..

من أين أتت؟؟

على منبعها دلوني!

وعن مصدرها حدثوني..

هنالك تجد المنبع الناغم منشدا قصيدة تصدح بسر الوجود..

إنه ذكر داوود.

تسبيحه.

تأويبه.

ثمرات خلوته.

تلك اللحظات التي نتحدث عنها و التي يقتنصها ليناجي فيها ربه ، ويتعالى صوته العذب بتلك التسابيح الخلابة ، التي لم تتحمل الصخور الراسيات أن تسكت عنها ، فسارعت لترديدها معه ، منافسة بذلك الطيور ، التي ما انفكت عن التأويب والتغنى معه بذكر الإله الحبيب ..

﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾

[سبأ: ١٠]

إنه التأويب.

نوع خاص من الذكر تمتزج فيها كينونة داوود بالمخلوقات من حوله ليتناغموا جميعا في منظومة كونية تتعالى مزاميرها منتشرة في أرجاء السماوات والأرض مرددة شعارا واحدا شعار التسبيح.

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾

[ص: ١٨-١٩]

الكل يردد ويأوب.

الجبال.

الطير.

الحجر والشجر.

الكل يسبح ويذكر.

والكل يحتفل بأعياد المحبين وقرة عين العارفين.

وينهلون آمنين من تلك الكنوز.

كنوز الخلوات.

تلك التي أضاءت محاريب الأنبياء والصالحين.

محراب مريم ومحراب زكريا ومحراب داوود ومحاريب سليمان وبطن حوت يونس وغار ثور حيث تحنث نبينا عليه وعليهم جميعا أزكى الصوات والتسليمات.

كلهم كانت له خلوة.

وكانت تأتي لحظة العزلة والأنس بالله وحده.

ولعل عزلة الخليل إبراهيم عليه السلام هي أشهر تلك العزلات.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾

[مريم: ٤٩]

إنها العزلة حين تدلهم الفتن ويصير الدين غريبا.

عندها قد تكون هي المنجاة.

وفيها تكون الهبات والتفريجات.

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾

[مريم: ٤٩]

بل وقد تكون هي المأوى والملاذ.

كذلك كانت لأصحاب الكهف.

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾

[الكهف: ١٦]

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ**».

وعنه أيضاً رضي الله عنه أَنَّ رَجُلا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ **فَقَالَ : أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ : رَجُلٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ. قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ يَعْبُدُ اللَّهَ رَبَّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ»**

هذا خيار إذاً شاء من شاء وأبى من أبى.

ليس الخيار الوحيد نعم.

ولا يشترط أن يكون الأفضل.

لكنه أحيانا يتحتم.

صحيح أن المخالطة والصبر في الأصل مقدمان لكن لا ينكر على من اختار العزلة براءة لدينه.

نعم نكرر « **الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»** .

قال السندي في حاشيته على ابن ماجة الْحَدِيث يَدُلّ عَلَى أَنَّ الْمُخَالِطَ الصَّابِرَ خَيْرٌ مِنْ الْمُعْتَزِل.

وقال الصنعاني في سبل السلام: فيه أفضلية من يخالط الناس مخالطة يأمرهم فيها بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحسن معاملتهم فإنه أفضل من الذي يعتزلهم ولا يصبر على المخالطة .

لكن ماذا إن لم يستطع.

ماذا إن لم يسلم له دينه ولم يصف له قلبه.

حينئذ لابد من أن تكرر له النصيحة .

عن الزبير بن العوام -رضي الله عنه- أنه قال: «**اجعلوا لكم خبيئة من العمل الصّالح كما أنّ لكم خبيئة من العمل السّيِّء»**

لابد من معادلة ذنب الخلوة بطاعة في الخلوة.

وحبذا لو لم تكن معادلة وكان ازديادا وقربا.

لقد كان دوما للصالحين مثل ذلك.

ورد عن سيدنا أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- أنه كان إذا صلى الصبح خرج إلى الصحراء ، فاحتبس فيها شيئًا يسيرًا ، ثم عاد إلى المدينة.

فعجب الفاروق عمر -رضي الله عنه- من خروجه ، وكان حريصا على منافسته في الخيرات كما لا يخفى.

فتبعه يومًا خفيةً بعد ما صلى فإذا بأبي بكر يخرج من المدينة ويأتي خيمة رثة في الصحراء.

اختبأ عمر خلف صخرة ، فلبث أبو بكر في الخيمة شيئًا يسيرا ثم خرج ، فخرج عمر من وراء صخرته ودخل الخيمة ، فإذا فيها امرأة ضعيفة عمياء وعندها صبية صغار ، فسألها عمر: من هذا الذي يأتيكم؟

قالت المرأة: لا أعرفه ، هذا رجل من المسلمين ، يأتينا كل صباح منذ كذا وكذا

قال عمر: فماذا يفعل؟

قالت المرأة: يكنس بيتنا ، ويعجن عجيننا ، ويحلب شاتنا ، ثم يخرج ، فخرج عمر وهو يقول: «لقد أتعبت الخلفاء من بعدك يا أبا بكر»

تأمل حرص الصديق على تلك الخبيئة.

وتأمل حرص عمر على المنافسة والذي لولاه لما بلغنا مثل ذلك عن خليفة رسول الله ﷺ والظن أن الأحب إليه ألا يبلغ ذلك أحدا وحرصه على التخفي دليل ذلك.

العجيب أنه قد ورد عن الفاروق عمر بعد ذلك مثل ما ورد عن الصديق رضي الله عنه فقد خرج ليلة في جنح الليل ، حتى لا يراه أحد ، ودخل بيتا ، ثم دخل بيتا آخر ، ورآه رجل ، وذكر نفس ما ذكره عمر عن أبي بكر.

نعم ، رآه طلحة رضي الله.

ولمّا كان الصباح ذهب طلحة فدخل ذلك البيت فلم يجد إلا عجوزا عمياء مقعدة ، فسألها:ما بال هذا الرجل يأتيك؟

قالت العجوز: رجل من المسلمين يتعاهدني منذ كذا وكذا بما يصلحني ، ويخرج الأذى عن بيتي ، ويقوم بحالي ،

وعن عمر بن ثابت قال: لما مات علي بن الحسين -رضي الله عنهما- فغسلوه وجدوا في ظهره أثر سواد ، فقالوا: هذا ظهر حمّال ، وما علمناه اشتغل حمالاً.

فلما انقطع الطعام بموته عن مائة بيت في المدينة من بيوت الأرامل والأيتام ، كان يأتيهم طعامهم بالليل ، لا يدرون من يحضره إليهم ، إلا حمالا لا يعرفونه في ظلمة الليل.

فعلموا حينئذ أنه هو الذي كان يحمل الطعام على ظهره إلى بيوتهم بالليل.

وطفق بعدها أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السّر حتى مات عليّ بن الحسين.

وكان أيوب السختياني رحمه الله يقوم اللّيل كلّه ، ويخفي ذلك ، فإذا كان عند الصّبح رفع صوته ، كأنّه قام تلك السّاعة.

وكان إذا قدم الرّجل على الرّبيع بن خثيم قام الرّبيع فغطّى المصحف بثوبه حتىّ لا يرى الرّجل أنّه يقرأ القرآن.

والآثار في ذلك أكثر من أن تحصيها سطور فصل في كتاب أو كلمات في مقال من أراد أن يرجع إليها في مظانها فليفعل.

والأهم أن يطبق.

أن تكون له خبيئة.

وألا يحرم نفسه من تلك اللحظات.

بل من تلك الكنوز.

ولو يدري ذلك المذنب في خلوته أي كنز يضيع..

تلك اللحظات التي يهدرها في معصية سر هي أثمن ما في عمره لو تفكر.

لحظات خلوة مع ربك..

ما أجملها من لحظات لو أنك تدري.

ربك الذي يراك حين تقوم.

والذي يرى تقلبك في الساجدين.

تلك وربي ليست مجرد لحظات.

إنها لكنوز.

كنوز الخلوات .

هي تلك اللحظات التي أدرك قيمتها المحبون وتلمسها الصالحون وقدرها حق قدرها العارفون في كل زمان ومكان.

هي الفرصة الذهبية المهداة ليقترب خلالها من مولاه.

ثم نستبدل هذا الشرف بلذة زائفة ولتصير الكنوز ذنوبا ولتتحول تلك اللحظات الثمينة لأيام ندم وساعات خزي وألم!

أي حسرة؟!